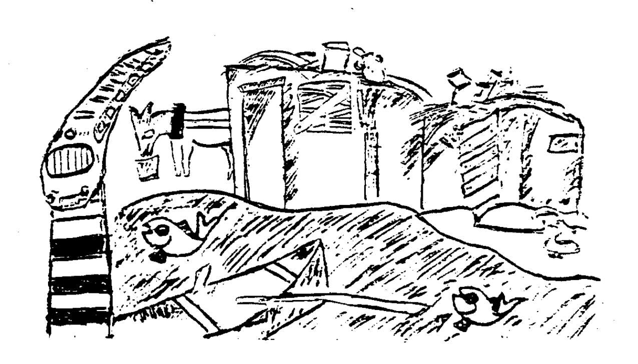
قصر ثقافة بورفؤاد

هاشم عبد الإله



أطراف مدينة

رواية

عادل القنصل

بسم الله الرحمن الرحيم

أطراف مدينة

٢٠٠٥/٢/٢٧ رواية عادل القنصل

"خالــد" من قلب المدينة الجميلة التي تنضب بالحياة..يعشقها كفنان يــود أن يــرسمها ليس كما هي..بل كما يراها هو..وهو ليس بفنان بالمفهوم المتعارف عليه للكل..لا يجيد الرسم أو التصوير أو النحت.
تجــول مــع ابيه الذي يهوى الصيد..الطيور والأسماك..وقتها كان صغيراً..تستهويه الأماكن الصغيرة من المدينة..وكلما مر بمكان سأل أبــاه عــن اسمــه..تارة يقول دي "الديبة"..ودي "المناصرة"..ودي "الجوابعة"..كلها مناطق للصيادين..وكل بلد جذورها ترجع لأسرة سميت المنطقة باسمها..هذا عن رحلته للصيد في غرب المدينة..ثم يقوم بــرحلة أخرى لجنوب المدينة ويعود ليسأل أباه عن مسميات تلك المــناطق..يقــول دي "زرزارة" ،"القابوطي" ، "اللبانة" ودي مزرعة "الرســوة" ودي عزبة "الإصلاح"..ودي "الجناين" ودي "هاجوج" و"بحر البقر" و"الكاب" و"أم خلف"..وعندما يذهب إلى قلب المدينة يســمع عــن الحــرية والسلام وناصر وعزبة "أبو عوف" مسميات لصــقت بذهــنه..مــنذ أن كــان صــغيراً لا يــتجاوز الثانــية

عشـــر..وكانـــت فكـــرته محــدودة عـــن وسط المدينة بأحيائها القديمــة..(بورفـــؤاد-العـــرب-المناخ-الإفرنج)..أدرك أن المدينة توســـعت بعـــد المنطقة الحرة وخلقت بها أماكن في أطرافها يسمونها عشوائية و تلك الأسماء أصبح يحفظها عن ظهر قلب.

عندما تخرج من معهد الخدمة الاجتماعية..عين باحثاً اجتماعياً..كان شـــغله الشـــاغل أن يعرج إلى تلك المناطق لكي يكتشفها عن قرب كباحث ودارس.

في الـــزيارات لاحـــظ أنه لا يوجد نظام هندسي واحد للمباني..حتى مـــواد البـــناء تختلف من بيت لآخر ومن منطقة لمنطقة..المواد تشمل الطـــوب الأسمـــنتي والطفلـــي والأخشـــاب والصـــفيح والسدة واللياســـة..والشـــوارع أشبه بالأزقة المتعرجة الغير مسفلتة..وأكوام القمامـــة تحد أطرافها..والمهن مختلفة..فيها التقليدي المعروف ومنها الصـــيد وتـــربية المواشي ومنتجات الألبان والتهريب كمصدر رزق لســـكان بعـــض المناطق وأن اغلبهم جاء مهاجراً من قريب وبعيد.. وجـــه بحـــري ووجـــه قبلي..والفقر سمة السواد الأعظم..وعاداتهم وتقالـــيدهم جاءوا بها من بلادهم ومزجت مع عادات وتقاليد أهل المديـــنة الأصـــليين وذابـــوا في أهلها ولا يفكرون يوماً في مغادراتها

بالرغم من معيشتهم الصعبة.

وكانــوا في بداية الأمر يدفنون موتاهم في مدافن الصدقة..ثم أصبح لهـم مقابـرهم التي تحمل أسمائهم..وتعجب حينما سمع من أبيه أن جـذوره مـن الصعيد وان جذور أمه من قرى دمياط..ولاحظ أن بورسـعيد القديمة خليط من أعراق محلية مختلفة من بلاد شتى..وبدأ يـراجع أسمـاء درس عنها ولها آراء في هذه الظاهرة..مثل شارلوت سيمور..واندريه جوسان.

****

وجـد مشـقة بالغة في جمع بياناته مستخدماً كل الأساليب في هذا الشـأن..من مقابلات شخصية وكانت دائماً تأتي بالرفض من أهالي تلـك المناطق..لعدم ثقتهم في المسئولين..وقد يبلغ الأمر التحرش بهم مـن فـتوات تلك المناطق..والذين هم من سماتها..وخاصةً معتادي الأجـرام..وإن كانـوا قليلين للغاية ولكنهم موجورون داخل تلك المجـتمعات التي يحكم علاقاتها التقاليد الريفية والصعيدية التي حملوها معهـم من بلادهم الأصلية فكان يعتمد غالباً على الملاحظة المستترة الـتي لا تخلو من أسلوب الملاحظة بالمشاركة..فكلما توجه إلى مكان يشـعر انـه غريبٌ والكل ينظر إليه ويندهش إما بسؤاله مباشرة أو

الهمـــس..فيقول أحدهم "تلاقيه من بتوع تعداد السكان أو الكهربا والميه..ما يسيبونا في حالنا مش كفاية القهر اللي إحنا عايشين فيه".
وأحـــياناً يـــتقدم إليه أحد من المتعلمين تعليماً متوسطاً أو عالياً وهم قلة..يسأله بدافع المساعدة على إتمام المهمة.
اعـــد دراسته وقدمها للمسئولين..لكن لم يكتف بذلك..تولد بخياله حكايـــات سمعهـــا من أهل تلك المناطق..منهم من علا وضعه المالي وانتقل من طبقة إلى طبقة..بل من مكان عشوائي للحي الراقي ليقيم بأعلـــى أبـــراجها ويعـــيش حـــياة علـــية القوم ومنهم من عاد إلى بلاده..ومنهم من أصبح "مكانك سر".
جمـــع نمـــاذج من تلك الأسر وأضفى عليها الخيال سواء في الأسماء الخاصة بالأشخاص أو أسماء عائلاتهم وعرض أفراحهم وأتراحهم في رواية "أطراف مدينة".

لقاء الصديقات

في نادي يقع على شاطئ البحر الأبيض المتوسط..يتجمع عليه القوم مـــن أبناء تلك المدينة..منهم من تمتد أصوله إلى عائلات معروفة في الأربعينيات وحتى الستينيات..واغلبهم من أسر كانت معدمة..طفت إلى السطح بعد أن تحولت تلك المدينة إلى منطقة حرة..منهم من هم أبـــناء وســـط المديـــنة أو أحـــد أحيائها القريبة (العرب–المناخ–بورفـــؤاد)..وقلة من أبناء أطراف المدينة (القابوطي–الحرية–الجرابعة–الديـــبة –المناصـــرة)..وتسمى تلك المناطق بالقرى..منها قرى لا تـــزرع ولا تحصـــد بمفهوم القرية المتعارف عليه..وهي مكان تجمع الصيادين.

في الـــنادي الـــثلاثة اجـــتمعن.."لطيفة" من القابوطي.."رعاية" من الحـــرية.."عزت" من عزبة الإصلاح..ينتظرن صديقتين لهن "عواطف ومحاســـن"..زمـــيلتي الدراسة في المرحلة الإعدادية..بإحدى مدارس بورسعيد التي تقع وسط المدينة..الأولى من عزبة "أبو عوف"..والثانية من "هاجوج".

الصـــديقتان ارتديا اجمل ما عندهما من ملابس..لتخفين مظاهر الفقر الـــذي حـــل بهما..ركبا سيارة أجرة حتى مكان النادي في الطرف

البعيد من البلدة..والذي يقع في الحي الراقي "الإفرنج".

كانـــت الجلسة مباراة..كل منهن تبرز إمكانياتها المادية وما تقيم فيه مـــن أرقى الشقق في أكبر أبراج المدينة..وما تملكه كل واحدة منهن مـــن ســـيارة احدث موديل..مما أحرج "عواطف ومحاسن" اللتان لا حول ولا قوة لهما إلا دخلهما الضئيل من جراء اشتغال الأولى بمهنة التمـــريض بعـــد حصـــولهما علـــى دبلـــوم المـــدارس الـــثانوية للتمـــريض..والثانـــية خياطة اكتفت بشهادة الإعدادية..والثلاث لم يحصلن على الثانوية العامة..بل خرجن من السنة الثانية ليتزوجن.

في آخـــر اللقاء رجحت كفتي "عواطف ومحاسن"..فكلاهما انعم الله علـــيه بـــنعمة الإنجـــاب التي حرم منها الاثنان "لطيفة وعزت"..أما "رعاية" فلديها ابن معوق

فلـــم تخل الجلسة من نظرات الحسد بينهن على ما انعم الله به عليهن سواء من مال أو ولد سليم.

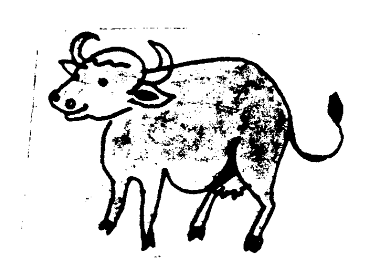
ليلة العيد

اعتادت النساء الخمس..قضاء ليلة الوقفة وأول أيام عيد الأضحى المبارك بمسقط رأسهم..صحبة أزواجهن..فمنهم من ينتظرن ذلك اليوم على أحر من الجمر..ومنهم من يذهبن كتأدية واجب..بل قد يكن مرغمات على تلك الزيارة تحت إلحاح طلب الأزواج.
الثلاثة كل منهن تستعد على طريقتها للاحتفال بتلك المناسبة..منهن من يقوم أزواجهن بذبح خرافاً أو جاموساً..أما "عواطف ومحاسن" فيشتريان اللحم على قدر إمكانياتهما للاحتفال مع أسرتهما بهذه المناسبة.

الليلة التي تسبق تلك المناسبة كلهن يفكرن في ذلك المشوار إلى مسقط الرأس الذي قد يبعد عدة كيلومترات عن محال إقامتهن..التي تحمل في طياتها ذكريات الطفولة حتى زواجهن وما وراء ذلك من حكايات منها المؤلم ومنها السار..وأهل الحي وما يمثلونه في حياتهن وحياة أزواجهن من مواقف منها السلبي والإيجابي.
وأهالي تلك المناطق..منهم من ولد وترعرع في أحضان تلك المناطق التي تشبه العشوائية..ومنهم من نزح إليها من بلاد مختلفة..سواء كانت محيطة بالمدينة كالمطرية ودمياط والمنزلة..ومنهم

من نزح من بلاد ابعد..من صعيد مصر..بل إن منهم من تمتد جذوره إلى حفر القنال مع بداية ميلاد المدينة التي تشبه أمريكا في تعدد جنسياتها مع اختلاف الوسيلة والغاية بين الاثنين..ويتشابهان في هدف واحد هو حياة جديدة لإعمار تلك الأماكن والبحث عن الرزق.

فتولدت عادات وتقاليد خاصة بهم..إما كانت وليدة الأرض الجديدة التي يعيشون بين أكنافها أو أتوا بها من بلادهم..وان كانت تلك العادات والأعراف تتشابه كثيراً بين أهل تلك القرى المتطرفة..بل وأن عاداتهم وتقاليدهم انتقلت إلى قلب المدينة الكبيرة وخاصة أحيائها الشعبية كالعرب والمناخ مثل عادة الاحتفال بتنجيد العروس.



شي الله يا سيدي القابوطي

القابوطي..قرية صيادين تقع على قناة تسمى قناة الاتصال..تصل بحيرة المنزلة بقناة السويس..وعدد سكانها يزيد عن الألف نسمة موزعين على عدد ٣٠٠ أسرة.

اغلب سكانها يحترفون مهنة الصيد باستثناء القليل ممن يحترفون من أهل تلك البلدة من خلال مهن مختلفة..منها "العزق" لتناول الشاي والقهوة وتدخين الجوزة التقليدية المكونة من جوز الهند مفرغ من الثمرة وغابة طويلة..بعد رحلة الصيد والأمر لا يخلوا أحياناً من قيام القلة القليلة تدخين الحشيش في الزمن الماضي والبانجو في الزمن الحالي..والأهل تجمعهم صلات وروابط مودة واغلبهم مرتبطين بعضهم البعض برباط النسب.

هذا ما تتذكره "لطيفة" وزوجها "بعلاوي" الذي يكبرها بعامين وهو الآن في الخامسة والأربعين من عمره..عندما تحركا بالسيارة "الفولفو" من محل إقامتهما بأحد أبراج حي الإفرنج الذي يطل على البحر..ويخترقان شوارع المدينة المزدحمة حتى يصلا إلى قريتهما..يتجه " بعلاوي " مباشرة قبل أن يتوجه إلى البيت لأحد أهل "اللبانة" ليشتري منه جاموستين ويتفقا على ميعاد الذبح بعد صلاة العيد في

زاوية القرية.
تنتظرهم "أم لطيفة" وابنتها "هناء" شقيقة "لطيفة" من الأم وشقيقة " بعلاوي" من الأب..وهي سيدة تعدت الستين من عمرها..صلبة العود..تعيش على القيمة الايجارية للنش تمتلكه..لينتقل الركاب من القابوطي حتى المطرية ورثته عن زوجها الأول..الذي كان يعمل "أبو بعلاوي " قائداً له.

يخترق الشارع المسفلت الذي يقع على قناة الاتصال ثم يركن السيارة على مقربة من البيت ويترل هو وزوجته "لطيفة" سيراً على الأقدام حتى المترل المكون من طابقين..الأول يشمل حجرة نوم ودورة مياه ومطبخ والثاني يشمل حجرة نوم أخرى وبلكونة من الخشب والزجاج تخرج عن حد المترل..دائماً مضاءة بلمبة فلورسنت والبيت مقام على أعمدة حديدية وأرضية الحجرات وأرضية البيت من الخشب وهو يشبه اغلب مساكن تلك القرية..التي يفصل بينها أزقة..اغلبها لا يتعدى عرضه متراً واحداً.

تدخل "لطيفة" بقوامها المياس وبشرها السمراء مرتدية أحدث الموديلات وتحمل أكياساً بها ملابس العيد لأختها "هناء" التي تبلغ من العمر أربعة عشر عاماً..اجتازت امتحان الشهادة الابتدائية..وكانت

أختها ترغب في أن تكمل تعليمها حتى الجامعة ولكن أمها اكتفت بما حصلت عليه الابنة لتساعدها في أمور البيت.

ثم تقدم هدية لأمها تشمل عدة جلابيب سوداء اللون..وهو الشكل واللون الذي تفضله الأم.

يدخل " بعلاوي" حاملاً أكياس الفاكهة والمعلبات والخبز الإفرنجي "البيتي بان" وبعض الحلوى من البسبوسة والجاتوه ثم يقبل يدي زوجة أبيه "حماته".

يجتمعون على العشاء الذي أعدته الأم من وجبة "حنشان مدفون بالأرز"..ثم يصعدان من العشاء لحجرة النوم العلوية استعداداً للنوم..وتغلبهما الذكريات قبل أن يغلبهما النوم.

****

يتذكر " بعلاوي " معاملة زوجة أبيه التي حلت محلت أمه بعد وفاتها بعام وهو كان ما زال في عامه السادس..كانت معاملتها سيئة..زوجة أب بمعنى الكلمة..تنهر "لطيفة" إذا ما اقتربت منه لتلعب معه..وعندما اصبح شاباً ليساعد أباه في اللنش الذي تملكه زوجة الأب..كانت تعامله بمنتهى القسوة بل إنها اقترحت على أبيه أن يترك المترل..خوفاً على ابنتها التي بدأت تظهر معالم أنوثتها..فأرسله

إلى عمته في المطرية وأقام معها عدة أعوام..يزداد فيها شوق الأب لابنه..فعرض عليها الزواج من ابنتها عندما اكمل الثمانية عشر عاماً..فكان الزواج رغماً عنهما حتى يكون له وجوداً شرعياً في منزل الأسرة..بل هو بيت أمه الذي بناه لها أبوها قبل موته عندما تزوجت من أبي" بعلاوي ".

يتذكر عندما كان يرى "لطيفة" ترتدي ملابس المدرسة لتذهب إلى مدرستها الإعدادية ثم الثانوية في بورسعيد..كان يغازلها اغلب شباب الحي..فهي تكاد تكون من القلائل من هذه القرية اللاتي وصلن إلى مرحلة تعليمهن الثانوي بعد أن قضيا السنوات الأولى بالمرحلة الابتدائية في مدرسة القرية.

كان يود أن يعرف من شغل بالها من هؤلاء الشباب..فهو على علم أنها أرغمت على الزواج منه وهو لا يعرف الألف من كوز الذرة..مما كان يؤلمهما ويؤلمه..خاصة عندما كانت تمسك كتاب اللغة الإنجليزية التي لا يعرف أشكال حروفها فيعلم أن الحاجز بينهما كبيراً.

يتذكر اللنش في أيام النوة..حينما يحمل الركاب ويخرج بهم من قناة الاتصال حتى البحيرة الفسيحة..وكأنها مركب تتلاعب بها الأمواج في بحر الظلمات..تمتلئ السماء بسحب سوداء..وتخلق أمواج

للبحيرة الهادئة..فيترنح اللنش ويصرخ الركاب..فأحيانا يضطرون لربط اللنش بأحد الجزر التي مازالت ظاهرة..بعد أن غطت أمواج البحيرة معظم الجزر..ينتظرون هدوء العاصفة وسكون الأمواج ويكملون الرحلة حتى المطرية..ينزل الركاب بأمتعتهم التي هي في العادة طيور وخراف وماعز لبيعها في سوق المطرية.

رحلة عودة الركاب..تشكيلة..من الصيادين الذين يحملون أسماكهم لبيعها في سوق بورسعيد..والبعض الآخر يأتي لزيارة أهله وذويه بالقابوطي..عندما تحولت بورسعيد لمنطقة حرة..كانوا يقاسون الأمرين عندما يخضعون للتفتيش الجمركي..جميع الركاب يحملون بضائع المنطقة الحرة..أو يرتدون ملابس أجنبية اسفل ملابسهم المحلية حتى يبيعوها في المطرية للتجار الذين يأتون من جميع البلاد لشراء تلك البضائع.

ذات مرة ارتدى بنطلون جينز وقميص أسفل جلبابه..وبعد أن عبر الجمرك..باع البنطلون والقميص وكسب فيهما عشرة جنيهات..قيمة ثلاث يوميات يحصل عليها من زوجة أبيه..واعتاد ذلك..مرة ينفذ بها..ومرة تصادر..حتى ادخر مبلغاً كبيراً..كان يختزنه في صندوق أسفل أعمدة البيت..كان معتاداً على زيارة مقام

الشيخ القابوطي طالباً البركات وداعياً أن يخرج من سيطرة زوجة أبيه.

****

تعطل اللنش بالركاب في عرض البحيرة..فظل يجدف بالمجداف بمساعدة الركاب حتى وصلا إلى اقرب جزيرة..تتهافت الفلايك الصغيرة لتقل الركاب والعودة بهم إلى بورسعيد ليستقلون اللنش الحكومي الكبير التابع لمرفق نقل الركاب ببحيرة المنزلة.

تعرف على "عياش" ..الذي كان يخفي كمية كبيرة من الأقمشة في قاربه ورفض أن يحمل معه ركاب في طريق العودة إلى بورسعيد..يقدم لهم المساعدة بشرط أن يبحر بهم تجاه المطرية..صارت معرفة بينه وبين "بعلاوي"..وطالما يتقابلان في عرض البحيرة..غضبت عليه زوجة الأب وطردته من البيت.

توسع نشاطه في التهريب..شاركه "عياش"..كانا يتسلمان البضاعة من التجار ويهربونها من اسفل مياه البحيرة..هما بارعان في الغطس تحت المياه..يعومان أسفلها حاملين على ظهورهما كمية كبيرة من الأقمشة الفاخرة ملفوفة في عبوات من البلاستيك لا ينفذ من خلالها

الماء..تنتظرهم مركب شيخ المهربين في البحيرة ويخزنها في أحد الجزر المنتشرة في البحيرة.

تكثر الأموال في أيديهما..تزوجا.."بعلاوي" من "لطيفة" و"عياش" من "رعاية"..كل منهما حضر فرح الأخر في أفخم كازينوهات بورسعيد..كانت زوجاهما "لطيفة ورعاية" صديقتين في المدرسة الثانوية..ولأن الأزواج غير متعلمين..مركب النقص طغى على شخصيتهما فأخرجا زوجتيهما من ثانية ثانوي.

كل منهما تزوج في بيت أسرته ثم انتقلا إلى سكنهما الحالي في أعلى أبراج بورسعيد عندما تعدت ثروة "بعلاوي وعياش" المليون جنيه.

****

غلبه النعاس..سأل زوجته:

- انتي مش هتنامي يا لطيفة.

ما زالت سارحة تفكر في رحلة عمرها..لم تحبه..عادت بها عجلة الذاكرة..حينما كانت متفوقة في المرحلة الابتدائية بمدرسة قرية القابوطي..حصلت على الشهادة الابتدائية بمجموع كبير..رفضت أمها في بادئ الأمر..أن تكمل تعليمها..لكنها عنيدة وشخصيتها قوية..فأكملت تعليمها في المدرسة الإعدادية..عليها أن تذهب إلى

المدرسة الواقعة في وسط بورسعيد يومياً..مسافة تزيد عن خمسة كيلومترات.

تستيقظ فجراً لتلحق بعربات الكارو التي تنقل الأسماك الخارجة من البحيرة لبيعها في سوق بورسعيد..تركب أعلاها وهي تشعر بالخجل..كان يركب معها "شديد" من أهل القرية..من أسرة فقيرة..أبوه يعمل صياداً..طالب بالمدرسة الثانوية العسكرية ببورسعيد.

كل منهما ينظر للآخر من اسفل عينيه..كل منهما يرى في الآخر شيئاً يجذبه..لكن لا كلام إلا ما تنطق به العيون.

تتوقف العربة في السوق..يترلان ويكملان المشوار لمدرستيهما القريبتان من بعضهما البعض..سيراً على الأقدام..هي تسير على رصيف وهو يسير على الآخر..المرة الأولى التي تنتقل فيها من خيالها الضيق إلى المدينة الرحبة المتسعة بمبانيها العالية الضخمة..لم يتمنى أحدهما أن يعيش في تلك المدينة بصخبها وحركتها السريعة..يأملان أن يكملا حياهما في قريتهما الصغيرة.

****

في الشتاء..كانت الرحلة شاقة..تعرفا على بعضهما حينما سألها عن

مقرر اللغة الإنجليزية..هو نابغة في تلك اللغة ويأمل أن يكون مدرساً للغة الإنجليزية..في المرة الأولى هربت منه..رغم أنها تخفي بين ضلوعها إعجابها الشديد بشخصيته القوية..هو فارس أحلامها..مكافح..منتمياً لقريته التي يتحدث عنها دائماً مع صاحب العربة الكارو "نصحي" الذي يؤكد له أن الله انعم عليهم بالإقامة في تلك القرية التي يباركها الشيخ القابوطي..الشيخ الوحيد في المدينة الصغيرة..الذي يأتي أهلها لزيارته والتبرك به.

لاحظ أنها ترتعش من البرد..فخلع السويتر الذي كان يرتديه وناولها إياه..ترددت في بادئ الأمر..ولكن تحت إصرار من سائق عربة الكارو ارتدته حيث قال لها:

– يا بنتي ده انتي زي أخته الصغيرة..حاكم شديد زينة شباب القابوطي..طيب وابن ناس طيبين..مشرف بلدنا بعلامه..وانتي إن شاء الله تشرفي البلد لما تبقي دكتورة كبيرة وتفتحي عيادة في البلد إن شاء الله.

دعت من قلبها أن يقبل الله دعائه..ثم نظرت إلى "شديد" في حب فنظر لها في شوق.

ذات مرة..أعطاها رواية حب"لإحسان عبد القدوس"..دس داخلها خطاب عاطفي..أخذته منه..ظلت تقرأه أثناء الفسحة..عثرت على الخطاب..أخفته داخل ملابسها..حملها حمل ثقيل..أو الصق بها تهمة قد تشينها بين أهل قريتها..القرية التي لا تعترف بالحب..الزواج هو الحب..والزواج دائماً من الأقارب.

عادت من المدرسة مرتبكة..دخلت الحجرة وأغلقت بابها خلفها وراحت تقرأ الخطاب المليء بعبارات الغرام المستترة..في زمان كان للحب قدسيته..في مكان أشبه بالريف يتوارى الحب خلف مبانيه الفقيرة..القلوب الفقيرة تحيا بحب غني.

في اليوم التالي ترددت في الذهاب إلى المدرسة..كيف ستواجه من نطق لسانه على الورق بحب كان يجب أن يختفي خلف الجفون.

نزلت من بيتها..انتظرت العربة الكارو..فلم تحضر..النوة منعت الصيادين من الصيد فلا بيع ولا شراء..ولا عربة تذهب للسوق..لمحته يأتي من بعيد راكباً دراجة أبوه..شاور لها حتى تلحق به بعيداً عن البلدة ليوصلها إلى المدرسة..ترددت ثم جرت ناحيته وركبت خلفه..لفت يديها على وسطه..تكهربت أجسادهما..فقد قاد الدراجة بيد..واليد الأخرى تشبثت بيديها..الطقس بارد..وجوهما

حار جداً..أجسادهما تتصبب عرقاً حتى وصلا إلى الشارع المؤدي للمدرسة..نزلت وذهبت إلى مدرستها..لم تع أي درس من دروس ذلك اليوم..ما زالت تحلق في رحلة الحب الدافئة في الشتاء البارد.

****

لم تعد معه..فقد انتظرت الأتوبيس الذي يقترب موقفه من قريتهم..ركبت وظلت تنظر من الشباك لعلها تجده عائداً راكباً دراجته.

دخلت بيتها والسعادة تغمرها..حب بداية المراهقة..هو الحب الأول والأخير..أي حب يأتي بعده تحكمه مصالح اجتماعية أو نفسية.

فلم تستطع أن تقوم من سريرها في صباح اليوم التالي..لم تذهب للمدرسة فقد أصابتها نزلة برد حادة..ظلت ثلاثة أيام طريحة الفراش تهذي بكلام غير مفهوم..تذكر اسمه مرات عديدة وتقول "شديد..شديد"..تنظر إليها الأم وتقول بفطرتها "كبدي يا بنتي..البرد شديد مش قادرة عليه".

****

نهضت ونظرت من شرفة حجرتها..وجدته يقف بجوار عمود النور

ينظر إلى شرفتها وقد تجمد من البرد..يبدو انه يقف كل يوم في نفس المكان على أمل رؤيتها.

ثم عادت من المدرسة..معه..على العربة الكارو..وبدأت الأيادي تتشابك فتشيع حمى الحب والشوق في اجسادهما..وأيام تجر أيام..والرحلة تتكرر..وفي الإجازة الصيفية..يلتصق كل يوم بعمود النور..ساعات طويلة حتى تطل عليه..تشاور إليه ويشاور إليها..حتى تجرأت ذات يوم ونزلت دون علم أمها..رأته..سبقته مسافة طويلة..حتى استدارا خلف أحد العمارات مدت يدها فأمسكها وقبلها..تحدثا طويلا عن الحب والأشواق والأشواك التي تؤرق حياتهما..وعدها انه سيتقدم لخطبتها بعد حصوله على الثانوية العامة.

****

مرت الأيام والشهور والسنون وحصل على الثانوية العامة والتحق بكلية الآداب قسم لغة إنجليزية بالقاهرة..وأصبحت هي في الصف الثاني الثانوي..كانت تنتظر عودته كل أسبوعين أو ثلاثة..يقف مرتكناً على نفس عامود الإنارة المواجه لبيتها..يتقابلان خلسة..اتفق على أن يتقدم لها فكادت تقفز من الفرحة.

تقدم ومعه والده الصياد البسيط..لكن أمها رفضت وكذلك زوج

أمها..رفضت الأم لفقره ورفض زوجها ليزوجها من "بعلاوي".
وانتهت قصة الحب التي دامت سنين..هي اجمل سنين عمرها..وتزوجت من "بعلاوي" الذي قدم لأمها مهراً يعجز أي شاب في قريتهم أن يدفعه..عشرة آلاف جنيهاً..وذهبت لتسحب أوراقها من المدرسة الثانوية فوجئت بصديقتها "رعاية" التي رافقتها في مراحل تعليمها من الإعدادية حتى الصف الثاني الثانوي..هي الأخرى تسحب أوراقها لتتزوج من "عايش" التي عرفت بعد ذلك انه شريك "بعلاوي" في عمليات التهريب.

****

في الصباح..استيقظا..ذهب ليذبح الذبائح ويصلي العيد..تجمع بعض من أهل القرية..الفقراء لينالوا حقهم من الذبيحة..والبعض الآخر رفض أن يأخذها..كانوا يقولون أنها من أموال التهريب..مال حرام..فلم يخف أمر كل من سولت له نفسه السير في هذا الطريق عن بعض من أهل القرية الذين يتقون الله ويكسبون مالهم من حلال..وحالهم لم يتغير من بداية المنطقة الحرة..نفس البيوت المتواضعة ومكاسبهم القليلة التي تشبع معدة أبنائهم.
يتوجه إلى الشيخ القابوطي..يقدم قدم ويؤخر الأخرى..يشعر انه

كان يقابله بالترحاب..الآن كأنه يصده عن عدم التقدم من مقامه.

تنظر من الشرفة..تجده يسير لأداء صلاة العيد ومعه ابنه يبلغ من العمر ستة عشرة عاماً..تنظر إليه في حسرة..ينظر إلى شرفتها من اسفل عينيه..تبكي في قلبها..لقد فاز بزوجة تنجب..هي لا تنجب..تعيش الحياة بالطول والعرض..لا أمل..لا هدف..لا حب يعطر قلبها.."بعلاوي" يوفر لها كل أسباب الراحة..تعيش في شقة من ستة حجرات..فرشت بأرقى أنواع الموبيليا..تأكل ما لذ وطاب وترتدي أفخم الثياب وتصادق علية القوم..إنها زوجة الريس "بعلاوي".

يتناولون غذاء العيد..اللحم والفتة..تنظر أمها إليها وتتحسر على ابنتها التي أصبحت شجرة بلا ثمار..جو فاتر ينقصه الدفء والأسرة..فهو ما زال يكن كراهية تجاه زوجة أبيه "حماته" ولا يتذكر منها خيراً فعلته معه طوال حياته..مع غروب الشمس يودعان الأم والشقيقة..ويستقلان سيارتهما في طريقهما للعودة إلى بورسعيد حيث الحياة المترفة الخالية من الدفء.

حرية بعد الاستعمار

"عياش" استقل سيارته المرسيدس وبجواره زوجته "رعاية" وفي الخلف ابنهما المتخلف عقلياً "رزق" في السادسة عشرة من عمره..ذهبا للاحتفال مع أسرتهما..أمه..وخالته "حماته" والجد "بيومي"..الحرية..لم تعد من أطراف المدينة بل أصبحت في قلب المدينة..بعد أن كانت بيوت متشابهة..تشبه عشش رأس البر..حينما انتقل إليها أهالي حي المناخ بعد حريق مساكنهم في حرب ٥٦..كانت تسمى مساكن محدودي الدخل..سكنوها في عام ١٩٥٨..سعى إلى بنائها جمال عبد الناصر لتعويض أهل المدينة الباسلة وبلات العدوان الثلاثي..كانت القيمة الايجارية لا تتعدى الجنيهين..سكنها الغلابة من مهن مختلفة..معروف منها الصيد..وبعض العمال وصغار الموظفين وأرباب الحرف المختلفة..عدد أسرها يقترب من الثلاثة آلاف..وعدد سكانها يقترب من الأحد عشر ألفاً.

السكن حجرة كبيرة بداخلها مطبخ ودورة مياه..ملحق بها حديقة..حولها معظم السكان إلى حجرة تضاف إلى البيت خاصة بعد العودة من هجرة ١٩٦٧.

يصل بالسيارة..تنزل "رعاية" ويذهب هو لشراء أضحية

العيد..تدخل "رعاية" ومعها ابنها..وما أن يراه الجد يقبله فهو ابن حفيده..وتقبله جدتيه..وتبكيان..تخرج لهم "رعاية" ما لذ وطاب من مأكولات معلبة..وملابس جديدة..لجدها "بيومي" ولأمها وخالتها..

يعتدل الجد ويقول "هما صحيح هيدوا مساكن الحرية يا رعاية" ويصمت..ثم يتلو عليهم الحكاية التي لا يمل منها..فهوْ الآن قد تعدى المائة عام..حضر من الفيوم إلى بحيرة المنزلة مستقلاً فلوكته..سار بها في النيل حتى وصل دمياط ثم دخل بفلوكته البحيرة..استغرقت الرحلة شهراً..نفذ فيها الزاد والزواد..كان ذلك في نهاية القرن التاسع عشر..تعرف على زوجته وأبيها اللذين كانا يصطادان في البحيرة..تزوجها وانجب منها "حمد الله" و"سعد الله"..أقاما في المطرية مسقط رأس زوجته..ثم انتقلوا جميعاً ليعيشوا في بورسعيد في المناخ "التحتاني"..كان ماهراً في الصيد هو وولد..تزوجا ابنتا خالتهما.."رزقة أم عياش" و"نصرة أم رعاية"..ولديه ماتا شهداء في حرب ١٩٦٧..وقعت عليهما قذيفة وهما يصطادان في بحيرة المنزلة..هاجر هو وزوجتا أبنيه والطفلان "عياش ورعاية".

سكنا الحرية في ١٩٥٨..هاجروا إلى الفيوم مسقط رأس الجد..ثم عادوا في ١٩٧٤..عاد الجد يمارس مهنة الصيد في البحيرة التي

تقترب من حي الحرية ويصلها بها قناة المترلة التي ردمت الآن..عندما مرض الجد تولى "عياش" مهنة الصيد.
قبل أن يكمل حكايته ينام كالعادة وهو جالساً.

****

"عياش" يتجول في الحي بمناطقه السبعة..يجتر ذكريات طفولته وحياته حينما كان يتوجه إلى المياه ويجد عسكر أمن الموانئ يصطفون بطول قناة المترلة لمنع التهريب..يلقي عليهم الحصى والحجارة ويختبئ خلف عشة قديمة..كان يكرههم..يقول عنهم..هم المستعمرون الجدد لبورسعيد..يحددون حرية الصيادين في الذهاب إلى البحيرة والعودة منها بحجة منع التهريب.
يبكي المهن التي انقرضت من الحي..كمبيض النحاس وحلاق الصحة..يتذكره "فكري" الذي كان يلاعبهم الثلاث ورقات في الأعياد ويستولي على كل عديتهم..يتذكر الشيخة "مريم" التي تقرأ الفنجان..تنبأت بزواجه من ابنة عمه وخالته في نفس الآن "رعاية" وتنبأت بخلفة ابنه المتخلف عقلياً..كانت تقول "ابن العم والخالة أتلم شمله على بنت العم والخالة..وشيلي يا شيالة وجواز القرايب زي لدغ العقارب..وثمرتهم دايماً معطوبة".

يعود إلى البيت بعد أن اتفق مع التاجر على ثلاث خراف..سيذبحهم بجوار مسجد الحرية بعد صلاة العيد.

يجد الجد قد صحي من نومه وما أن يراه يظل يؤنب فيه ويقول:

- انت مهنتك إيه يا واد يا صايع..الفلوكة بتاعتي اللي جيت بيها من الفيوم راحت فين يا واد..انت ما عنتش بتصطاد ولا إيه.

يتأفف ويجاريه ويقول:

- باصطاد يا جدي وربنا رزقني بالرزق العال.

يرد عليه قائلاً:

- أمال مش باين عليك ليه..وشك اصفر ومراتك نحيفة زي المعزة ظريفة..أوعى يا واد يكون قرشك حرام.

كلهم ينظرون لبعضهم البعض في ألم وحسرة..ثم تقول "رعاية" في نفسها "اهو الرزق بان على ابننا..لا بيتكلم ولا بينطق وفي ملكوت تاني".

****

الشقيقتان "الأم والحماة" تعدان وجبة العشاء التي يفضلها "عايش" وزوجته "رعاية"..أم الخلول بالصلصة..يأكلون بشهية وخاصة الابن

وزوجته "رعاية"..أم الخلول بالصلصة..يأكلون بشهية وخاصة الابن المعاق الذي يلتهم أم الخلول بعضمها..وأمه تمنعه وتحاول أن تؤكله بيدها فيرفض ويظل يبكي كالطفل الوليد.

بعد الطعام..يدخلان الحجرة المقامة محل الجنينة..وينامان..كل منهم يستعرض شريط ذكرياته كلما حضر إلى مسقط رأس الأسرة.

يتذكر "عايش" حكايته مع التهريب..حيث كان يعد فلوكته للصيد بساحل قناة المترلة قبل أن تردم..وكان لنش شرطة أمن الموانى يطارد أحد المهربين الخطرين..فألقى المهرب ببضاعته في فلوكة "عياش" الذي أخذها فأخفاها في وسط الغاب الممتد على شاطئ القناة.

ثم سمع طلق ناري أصاب المهرب وكان يدعى "حنتيرة" الذي ظل يعوم حتى وصل للشاطئ واختبئ به..فلحق به "عياش" واخرج الرصاصة من ساقه وظل يمرضه لمدة ثلاثة أيام وهو مختبئ على الشاطئ في منطقة تسمى "مردة شبانة" حتى تماثل للشفاء وصارا صديقين..وجاراه في عمليات التهريب..وانضم إليهم "بعلاوي" زوج "لطيفة".

كان يكره "لعبوط" الذي يبيع الحلويات للأطفال أمام المدرسة الابتدائية..كان رجلاً ضخم الجثة..اهطل... يقيم مع أمه العجوز

في عشة على قناة المنزلة..سمع عنه أشياء سيئة كثيرة..سمع أن زميلة "مرسال" حاول قتله ذات مرة..وكثرت الأقاويل عن علاقته به..علاقة يرفضها أهل الحي الطيبين..كانت "أم لعبوط" دائماً تنهره وتطرده من البيت وتقول له:

– يا واد يا نجس..أوعى تنجس البيت النضيف بعمايلك المهببة.

****

هي الأخرى تجتر الذكريات..لم تحب غير "عايش"..الذي كان في شبابه مفتول العضلات..يحترمه أهل الحي..والبعض يخافونه..حينما أشيع عنه أنه قتل شرطي من جنود أمن الموانئ..لا أحد يعلم إذا كان هذا الأمر حقيقة أم إشاعة حتى أصبح بطلاً في نظر المهربين..وذلك الشرطي وجدت جثته عائمة على مياه البحيرة..وتبين من تشريح جثته انه مات مخنوقاً..ولم تنسب الشرطة قتله لأحد..لكن أهل الحي نسبوها "لعياش" الذي لم يقترب منه أحد من رجال الشرطة.

كانت في المدرسة الابتدائية بشارع الأمين ثم انتقلت للمدرسة الإعدادية ببورسعيد حيث تعرفت بصديقتها "لطيفة"..و"عزت وعواطف ومحاسن"..لا يفارقن بعضهن البعض طوال فترة

الدراسة..وانتقلت إلى المرحلة الثانوية ومعها "عزت" من عزبة الإصلاح..ثم خرجوا جميعاً من الصف الثاني الثانوي ليتزوجن..عرفن أن "بعلاوي" زوج "لطيفة" هو صديق زوجها "عايش" وان "نصري"زوج "عزت" هو أيضاً صديق لهما وتجمعهم أعمال التهريب.

****

الجميع ينهضون من نومهم مفزوعين على صراخ الجد..يهذي ويقول:

- أنا سامع صوت البلدوزر جاي يهد بيتنا..ايوه أنا سامعه..ديك النهار هد بيت زغلول المراكبي..وعوض العجلاتي.

ينظران لبعض في ضيق..كل واحدة تهمس لابنها أو لبنتها..ويؤكدان أن الجد أصبحت عقليته غير سوية..دائماً يفزعهما من النوم على أحلامه المخيفة..ويسهر حتى ساعة متأخرة يحكي لهما كل يوم قصة حضوره من الفيوم بفلوكته وأحياناً يصمم أن يترل ليلاً ليطمئن عليها..فتقولان له:

- يا أبا الحاج قناة المترلة اللي كانت بتوصل للبحيرة..ردموها.

يظل يسب ويلعن ويقول:

– ما هو الراجل اللي من دهر ابني الراجل..ماشي على حل شعره..إيه يا ولاد ما تقولولي..الواد ده حرامي ولا قطاع طرق.

ثم تهمس كل منهما في أذن ابنها والأخرى في أذن ابنتها ويقولان:

– إحنا حاسين اننا في سجن وجدكم سجانه..نتزل نشتري طلبات البيت ونرجع..يقفل الباب بالترباس ويقعد يقول..ما فيش نسوان تخرج من البيت [illegible] بعد صلاة العصر.

"عياش" وزوجته "رعاية"..لا يملكان شيئاً غير عرضهم الدائم للانتقال للحي الإفرنجي ليقيموا معهما..ولكن الجد يرفض أن يترك البيت.

****

على صوت صراخ يأتي من بيت "أم لعبوط"..يجري "عياش" ومعه أهل الحي..ليكتشفوا أن "لعبوط" مات مقتولاً وتعفنت جثته ..ظل "عايش" يسأل عن "مرسال"..فعرف انه غادر الحي منذ ثلاثة أيام..فحلت رموز القضية أمام عينيه ولكن آثر ألا يتحدث مع أحد..وخاصة رجال الشرطة.

ثم توجه لذبح الخراف وتوزيعها على فقراء الحي..وما أكثرهم..تناول الغذاء مع أسرته هو وزوجته واستعدا للعودة..لكن ابنهما "رزق" ظل يصرخ ويعوي وتصيبه حالة تشنج..لم يتعرض لها منذ فترة..فظلت جدتاه تبكيان وتدعيان له بالشفاء..قالت "أم رعاية":

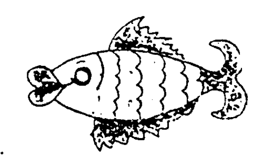
– الواد عاوز زار..الله يرحمها اللي كانت بتعمله.

قالت "أم عياش":

– ده عاوز زيارة للشيخ القابوطي أو الشيخ الجرايحي.

تظل "رعاية" تبكي ويكتم "عايش" حزنه داخل قلبه..ويخرجان به لعرضه على الطبيب ويودعان أسرتهما.

****



عزبة الإصلاح
"الهجرة العكسية"

"عزت" و"نصري"..يخترقان بسيارتهما الفارهة الطريق المؤدي للسفر إلى خارج بورسعيد..وما أن يخرجان من منفذ الرسوة يتوجهان إلى بيت أسرتهما في عزبة الإصلاح..التي تقع على بعد بضع كيلومترات قليلة..في الناحية اليسرى للطريق.

يقابلهما أبوها العسكري بالشرطة..بالترحاب البالغ ومعه زوجته..وهذا المكان اغلب سكانه من عساكر الشرطة..الذين يعملون بأقسام المدينة..وبعض الموظفين البسطاء والذين يعملون أيضاً في المدينة..وقليل من أرباب الحرف والمهن..والعزبة مكونة مما يزيد عن المائتين وخمسين أسرة يزيد تعدادهم عن ألف وستمائة نسمة

وصل بالسيارة وانزل زوجته محملة بالهدايا والفواكه والحلوى..دخلت حجرتها الملحقة بحجرة بيتهم المكون من حجرة واحدة..أضيفت تلك الحجرة وقت زواجها من "نصري"..مفروشة بحجرة نوم فخمة وثلاجة.

"نصري" عاد بالسيارة متوجهاً لزرايب القابوطي لشراء جاموسة..للأضحية..عاد والجاموسة حملت على سيارة ربع نقل

تبعته.

دخلا حجرهما..كل منهما نام على السرير..يعطي ظهره للآخر..رغم انهما تزوجا بعد قصة حب عنيفة.

يسترجع ذكرياته يوم أن هرب من قريته بمحافظة المنيا..خوفاً من الثأر..ذهب إلى القناطر الخيرية حيث يقيم ابن عمه..عمل معه مراكبي بالنيل لفسحة المترددين على المنطقة بقصد الترفيه.

تشاجر يوماً مع أحد الركاب الذي كانت ترافقه امرأة..علم من حديثهما أنها متزوجة وهي عشيقة لهذا الرجل..وعندما تجاوز وحاول يقبلها..ثارت ثائرته وقال له:

- هو إحنا مركبين قرون يا هندسة.
- هو أنا مش اداتك أجرتك..خلاص هازودك خمسة جنيه.
- خمسة جنيه..عشان أبيع شرفي وكرامتي..أنا هارجعك الشط وتاخدها وتخفى يا أنجاس.

وحينما وصلا إلى الشاطئ..سبه الرجل..فاشتبك معه وضربه ضرباً مبرحاً..فتجمع الناس من كل ناحية..وذهبوا جميعاً إلى نقطة الشرطة..وحجز لليوم التالي..وفوجئ انه سيرحل للتجنيد.

وزع على قوات الشرطة..وكان تجنيده بقوات أمن بورسعيد..أول

مرة يذهب إليها..بعد أسبوع من التدريب الأولي..رشح للحصول على فرقة قيادة سيارات بالقاهرة..أتمها وعاد إلى بورسعيد..شعر بكيانه..عندما كان يقود السيارة اللوري من مبنى إدارة قوات أمن بورسعيد..إلى معسكر الرسوة أو العكس..كان ينتظر كثيراً في جمرك "الرسوة" المؤدي للمعسكر الذي يقع بجوار عزبة الإصلاح..لفت نظره حيل المهربين الذين يخفون بضائع المنطقة الحرة..إما داخل أجسامهم..أو داخل أجزاء السيارة "الأبواب..أرضية السيارة..سقف السيارة"..سرح بفكره..انه يسمع أن المجندين الذين يعملون ببورسعيد..تعتبر كالإعارة للكويت أو السعودية..سمع أن كثيراً منهم بنوا بيوتاً..وكونوا مشروعات كثيرة.

****

في يوم شتاء بارد..خرج من المعسكر ليزود السيارة بالوقود من بنزينة تقع داخل المدينة..وعندما اقترب من كوبري الرسوة..وجد شرطي من العاملين بأحد أقسام شرطة المدينة ويصطحب معه ابنته..ترتدي زي المدارس الإعدادية..فتاة جميلة..شعرها اصفر..قوامها ملفوف..زغللت في عينيه في سن مراهقة لا يرحم..توقف بالسيارة ودعاه للركوب فقال الشرطي:

– يا ابني أنا ميري زيك وممكن اركب..لكن بنتي..وانت عارف إن ركوب الملكية معاك يؤذيك.

قال في تأكيد:

– يا حضرة الصول خليها على الله..ده الدنيا مطرة ومغرقة الدنيا.

ركب معه..وتعرف عليه..فعرف انه من سكان عزبة الإصلاح..وعرف أن ابنته في المدرسة الإعدادية ببورسعيد..تبادلا النظرات..كانت نظراتها يشوبها الخجل ونظراته يشوبها الرغبة..أنزلهما في المدينة وتوجه ليزود السيارة بالوقود.

****

رآها مرة أخرى تسير صحبة أبيها..لم يستطع اصطحابهما معه..لوجود جنود يركبون في الكابينة الخلفية للوري..ظل ينظر إليها وتنظر إليه..ثم انطلق بالسيارة في خط سيره.

مرة أخرى رآها تسير أيضاً صحبة أبيها ويجريان ناحية محطة الرسوة..ليلحقوا بقطار الصباح القادم من الإسماعيلية..تمنى لو لحق بهما..ولكنه قاد سيارته في اتجاه المدينة.

في ميعاد خروجها من المدرسة..ترك السيارة بالمعسكر في مدينة

بورسعيد..وانطلق ناحية مدرستها..انتظرها حتى خرجت..وجدها مع صديقاها "لطيفة..رعاية..عواطف"..كان يتمنى أن يتحدث معها..انتظر حتى سارت "لطيفة ورعاية" في طريق..واتجهت هي و"عواطف" إلى محطة السكة الحديد ليستقلا القطار ويترلان في محطة الرسوة..ركب القطار وظل ينظر إليها من بعيد..بادلته نظراها الخجولة..نزلوا جميعاً في محطة الرسوة..اتجهت "عواطف" إلى عزبة هاجوج حيث تقيم مع أسرها..وتوجهت هي إلى عزبة الإصلاح يجري ناحيتها وحاول التحدث معها ولكنها أسرعت خطاها حتى وصلت بيتها.

عاد إلى بورسعيد مستقلاً إحدى السيارات القادمة من الإسماعيلية..فوجئ أن الضابط قام بإثبات غيابه عن الخدمة لمدة ثلاث ساعات..فحُبس أربع وعشرون ساعة.

****

انتهت الدراسة ولم يعد يراها..فشده الشوق إلى رؤياها..ذهب إلى عزبة الإصلاح..فبدا غريباً أمام أهل القرية الذين يعرفون بعضهم البعض..فشعر بحرج وعاد إلى معسكره.

يفكر فيها ليلاً ونهاراً..ذهب في وقت راحته ليجلس على مقهى

بالقابوطي..تقابل مع "عياش" و"بعلاوي"..تعارفوا..وعندما علم "عياش" بأنه سائق في معسكر الرسوة لقوات الأمن..عرضا عليه أن يخبئ بعض البضائع اسفل اللوري..حيث أن الشرطة تضيق الخناق على البحيرة..تردد في بادئ الأمر..ثم استسلم لعرضهما.

أعطياه كمية كبيرة من الأقمشة..وضعها اسفل اللوري وربطها جيداً في منطقة مظلمة..بعد عودته من تزويد اللوري بالوقود..اطمئنوا لوضع البضاعة واخبراه بأنهما سينتظرانه بعد منفذ الرسوة بسيارة ربع نقل..وتمت العملية بنجاح وسلمهم البضاعة..قبض منهما مبلغ ثلاثمائة جنيهاً..كانت فرحة لا تقدر..ذهب إلى الشرطي "شوبكشي" والد "عزت" فأعطاه المبلغ ليشتري به الشبكة مع أمها..وافق "شوبكشي"..واخبر ابنته وزوجته..فوافقا.

****

ينتهي من خدمته ويذهب إلى "عزت" في العزبة..ليقضي معها وقتاً..جعلهما يقتربان من بعضهما البعض.

وظل في عمليات التهريب مع "عياش" و"بعلاوي" حتى كونا مبلغاً كبيراً..بنى منه عشة ملتصقة ببيت الشرطي "شوبكشي" وسرعان ما تزوجا.

في إحدى العمليات..وردت إخبارية للمباحث تفيد قيام الجند السائق "نصري" بتهريب بضائع أجنبية اسفل السيارة اللوري..وتم ضبطه وحرر له محضر جمركي وصودرت البضاعة مما قصم ظهور الثلاثة مادياً "عياش-بعلاوي-نصري".

حوكم عسكرياً..وكان الحكم بالحبس لمدة عامين والفصل من الخدمة العسكرية..نقل لسجن بورسعيد العمومي لتنفيذ الحكم.

كان الشرطي "شوبكشي" يزوره مع ابنته في مواعيد الزيارة..حتى أنهى العقوبة وعاد ليعيش معهم في الحجرة التي أقامها بجوار بيت حماه.

عاد ليعمل مع "عياش وبعلاوي" في التهريب..مرات عبر البحيرة ومرات عبر المنافذ..وتضخمت ثروتهم..وقرروا إنشاء شركة استيراد لبضائع المنطقة الحرة وتوسعت تجارتهم وانتقلوا مع زوجاتهم للإقامة في أبراج المدينة التي كانت في سبيلها للانتشار ببورسعيد..شكل فريد للعمارات الشاهقة..غير ما كانت عليه مباني بورسعيد التي لا تزيد عن ستة طوابق.

****

"عزت" تتذكر يوم أن تقدم أبوها للعمل في الشرطة..بعد أن أنهكه

العمل في الزراعة بيومية لا تقيم أودهم..توسط له صاحب الأرض الذي كان على علاقة بلواء شرطة من بلدقم في المنوفية..وكان توزيعه على بورسعيد.

تذكرت قول أمها أن أباها اسماها "عزت" لأنه كان يتمنى أن يكون له ابن ذكر يحمل اسم عائلته الصغيرة "شوبكشي النواعيدي".

سافر الأب إلى بورسعيد فالتحق للعمل بأحد أقسامها..كان في الخامسة والعشرين من عمره..في ريعان شبابه..مشهود له بحسن السير والسلوك..هو دوناً عن زملائه بالقرية الذي لم يهرب يوماً..وهذا جعله لا يوافق في بادئ الأمر على زواج ابنته من "نصري" لأنه شخص تصرفاته مريبة ولا يعرف له أهل..لكن تحت إلحاح زوجته التي تعاني الفقر..ودخلهم الصغير يكاد يكفي للخوض في مضمار المعيشة..ولاحظ أن ابنته قد تعلقت به..فوافق على مضض..الأب تركهم في البلدة بالمنوفية في بداية تعيينه..حتى دله أحد زملائه من الشرطة على عزبة الإصلاح..التي يقطنها اغلب رجال الشرطة الغرباء عن المدينة وساعده في بناء العشة التي أقاموا بها.

ذات مرة اصطحبهما الأب في يوم أجازته لقضاء يوم على شاطئ

المدينة..ركبوا القطار من محطة الرسوة صباحاً..بهرت "عزت" بالمدينة الجميلة وقارنتها بقريتها الصغيرة الفقيرة في المنوفية فشعرت أن أباها كان على حق لاختيار الحياة الجديدة في المدينة الجميلة..حتى لو أقاموا في عشة في ذلك المكان النائي عن المدينة.

نزلت للمياه بملابسها فشعرت بسعادة بالغة ولكنها خافت أن تسحبها المياه في ذلك البحر المتسع..عالم غريب جديد تمنت ألا يضيع منها حلمها بحياة جديدة لا تعي شكلها.

دخلت المدرسة الابتدائية ثم الإعدادية..ثم الثانوية في مدينة بورسعيد..وكان الأب يرافقها يوميا في تلك الرحلة التي تستغرق ربع ساعة في القطار أو مثلها في سيارة متجهة لبورسعيد "اوتو ستوب".

اشترى أبوها لها فستان في أول عيد فطر يمر عليهم بعد أن تركوا بلدهم..فستان لونه احمر يتخلله دوائر بيضاء وسوداء..وحذاء جلد لونه ابيض وله "فيونكة خضراء"..كان يشتري لها في بلدهم قماش من الكستور تفصله أمها "بيجامة" تقضي بها العيد وحالها كحال اغلب أطفال الريف في بلدهم.

ثم اشترى فستان آخر في عيد الأضحى..عرفت فيما بعد أن تلك

الفساتين من الملابس المستعملة "البالة"..التي تملئ أسواق بورسعيد بأسعار زهيدة..تعرفت على "عواطف" من هاجوج..وكانا يسافرا يوميا إلى بورسعيد..مرة صحبة أهاليهم ومرة وحدهما خاصة عندما انتقلت إلى نهاية المرحلة الإعدادية وبداية المرحلة الثانوية.

تعرفت أيضاً على "محاسن ورعاية ولطيفة" وصارت بينهن صداقة حميمة..يخرجن من المدرسة ويخترقن شوارع الإفرنج..وكل منهن تنظر للعمارات ذات الطرز اليونانية والإيطالية وتمنين جميعاً أن يقيمن بها.

"نصري" قضى على حلم عمرها أن تستكمل دراستها رغم تفوقها..وكان يدور حديث بينها وبين أمها..تحثها أمها على الزواج منه وتقول:

– يا بنتي ده مستقبله كويس..هيعيشك عيشة نضيفة وهيقب بيكي على وش الدنيا..ابوكي لما اتطور من مزارع لعسكري في البوليس ما كانش الحال يسر..البرد أكل جتته من خدمة الليل الطويل في بلد بردها بياكل الجسم..أنا أدرى بمصلحتك.

وافقت..عندما اشترى لها شبكة قيمة وجهز الحجرة التي أقامها

ملتصقة بعشتهم بحجرة نوم فخمة وثلاجة وتليفزيون وفيديو..لم تتوفر تلك الإمكانيات لأي فتاة أخرى تعيش في القرية.

وتحقق حلم إقامتها في عمارة فخمة من عمارات بورسعيد القديمة..لكن بشكل افضل..في أحد أبراج المدينة..عاشت في رغد العيش..لكن لم يكتمل حلمها بالإنجاب..وكان العيب من جانب "نصري".

الثلاثة.."رعاية وعزت ونصري"..حضرن حفل زفاف كل منهن..عندما تركن المدرسة الثانوية..وصارت بينهن صداقة حميمة استمرت سنيناً طويلة..وبين الحين والحين يتقابلن مع زميلتي المرحلة الإعدادية "محاسن وعواطف".

عزبة الإصلاح بسكانها..كانت بمثابة هجرة عكسية من خارج بورسعيد إلى داخلها..بعكس حال أهالي بورسعيد الذين هاجروا منها رغماً عنهم في حرب الاستنزاف ١٩٦٩.

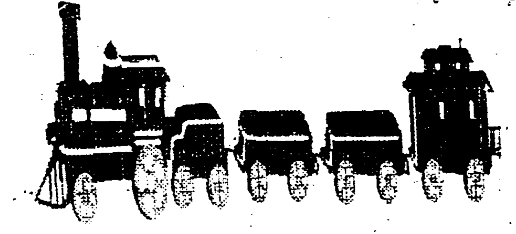
****

يستعدان للعودة بعد قضاء يوم اسعد أمهم وأبوهم..فدخلت على أبيها لوداعه..فوجدته قد توفي..أول أيام العيد..فظلت تصرخ وتعوي..فقد فقدت السند الحقيقي لها في الحياة..فتجمع أهل

القرية لوداع الرجل وعمل مراسم الجنازة..وصلوا عليه في الزاوية الصغيرة في وسط القرية..التي كان يصلي فيها صلاة الفجر قبل أن يتوجه لخدمته.

الأم صممت أن يدفن في بلدتهم بالمنوفية..فلم يتوان "نصري" عن تنفيذ رغبتها وجهز سيارة إسعاف لنقل الجثمان..واستأجر عدد من سيارات الأجرة لبعض المعزين من أهل القرية الذين صمموا أن يرافقوا الجثمان حتى بلدتهم..وكان اغلبهم "بلدياته" من نفس المحافظة لكن من قرى أخرى تجاور قريته أو تبعد عنهم.

عادت مع أمها و"نصري" بعد ثلاثة أيام..وأغلقوا العشة ورافقتهم الأم لتعيش معهم في شقتهم..بعد أن كان الأب يعترض على الإقامة معهم.



هاجوج

إمتداد الهجرة العكسية

في جنوب المدينة..خلف وابور المياه..تقع هذه المدينة العشوائية..التي نشأت في غفلة من الزمن..وهي قريبة من عزبة الإصلاح ومناطق مزارعو الرسوة والجناين..وردت في الإحصائيات أن أهلها يشتغلون بالزراعة عكس عزبة الإصلاح التي ورد رسمياً أن مصدر دخل أهلها من التهريب..وما أن اكتملت اصبح عدد أسرها لا يزيد عن ١٥٠ أسرة بتعداد سكان لا يزيد عن ٧٠٠ فرد.

يعملون على زراعة الخضراوات والخضرة التي يفضلها أهل مدينة بورسعيد من الفجل والجرجير والكرات..تزرع على ضفاف الترعة التي تغذي البند بمياه الشرب على شريط ترابي لا يزيد عرضه عن خمسة أو ستة أمتار بل يقل عن ذلك حتى يصل إلى ٢ متر..نشأت كآخر قرية عشوائية أضيفت إلى مساحة محافظة بورسعيد في الثمانينات وسميت بهذا الاسم نسبة إلى اللواء "هاجوج" رئيس حي ضواحي بورسعيد في ذلك الوقت فأصبحت أمراً واقعاً فأدخل إليها الخدمات المختلفة.

ومن أوائل الذين وصلوا إليها.."نفريت الجباوي"..من إحدى قرى

محافظة الشرقية..كان يعمل فراشاً في إحدى مدارسها..وصل بورسعيد أول مرة عن طريق رحلة أعدتها المدرسة في بداية المنطقة الحرة..بهرته المدينة الجميلة وتمنى أن يقيم بها..تزوج في العشرين من عمره وانجب "محاسن"..وتوفيت زوجته عند ولادة ابنه "عبد الحميد"..وعندما استقال من عمله تقابل مع بلدياته "حجازي" الذي هاجر إلى بورسعيد واستقر في هاجوج..فأغراه بالحضور إليها..ليساعده في زراعة الخضرة والخضراوات..فرحب وتحقق حلمه واصطحب معه ولديه.

ساعده "حجازي" في بناء عشة..والحق ابنته بالمدرسة الإعدادية ببورسعيد بعد أن حصلت على الابتدائية في الشرقية.

يقوم فجراً ليؤدي الصلاة ثم يتوجه لشريط الأرض الذي يزرعه مع "حجازي" ويرزقهما الله بما يساعدهما على العيش بجانب معاشه البسيط الذي يتقاضاه.

ابنه "عبد الحميد" يعاونه في زراعة الأرض وخرج من المدرسة الابتدائية.."شرويدي" ابن "حجازي" الذي يهوى الصيد من القناة..ويوفر وجبة الغذاء الرئيسية لأبيه وأمه وأخته الصغيرة "ثومة" ويبيع عما يزيد عن حاجتهم.

"شرويدي" اكبر من "عواطف" بثلاث سنوات..تلاقت أعينهما منذ أن نزلوا سكاناً جدداً على قريتهم..تبادلا إعجاب كل منهما بالآخر مما اثلج صدر الأسرتين..وسرعان ما خرجت "محاسن" من المدرسة بعد أن حصلت على الإعدادية..لم يكن لها طموح اكثر من الاستقرار الأسري..فأقامت مع "شرويدي" في عشة أسرته..لكن سرعان ما دبت الخلافات والمشاكل بينها وبين أمه مما جعله يبحث عن سكن آخر يضمهما..فعرض عليه أبوها أن يقيما معه..ولكن "أم شرويدي" رفضت ذلك أيضاً..غضبت فأقامت مع أبيها وهو ترك البيت وذهب إلى المدينة للبحث عن عمل..فاستقر كعامل في إحدى المقاهي ليجد مكاناً ينام فيه..فكان يعمل على مدار ستة عشر ساعة في ورديتين متتاليتين حتى يجمع اكبر قدر من المال.

****

ثقل الحمل على "محاسن"..رجت أبيها أن يبحث عنه حتى يحضر ميلاد وليده..فظل الرجل يبحث عنه دون جدوى..حتى اخبره أحد الجيران عن مكانه..فذهب إليه ورجاه أن يعود لزوجته..وعندما علم أنها حامل وفي سبيلها للولادة..اصطحب "نفريت" لأحد السماسرة ليجد له مسكناً..واستقر الأمر على حجرتين أعلى سطوح أحد المنازل

مستعملين..وقبل أن ينفلت النهار عاد مع نسيبه واصطحبهما في سيارة أجرة خاصة..دون علم والده ووالدته واستقر بهما المقام ليلاً في المسكن الجديد.

وعاد الوئام بحب جارف وشوق بالغ جعل الأب يزرف دمعاً على بعد ابنته..سلوته..التي كانت تعوضه عن أمها..يذهب إلى الأرض..ينظر إلى الفجل والجرجير وهما يخرجان من الأرض ويقوم بحشها..ثم تظهر من جديد..فيقول:

– كل حاجة مهما طال عمرها أو قصر..مصيرها تنقطف..اتقطفنا من ارض بلدنا واتزرعنا في ارض تانية..ومصيرنا نتقطف منها.

****

معركة حامية الوطيس بين "أم شرويدي" و"أبو محاسن"..اتهمته هو وابنته بخطف ابنها والتغرير به..وأبوه يقف مكتوف الأيدي..لا حول له ولا قوة ويقول:

– خلاص الفاس وقعت في الراس. يا أم شرويدي..واختاروا حياتهم..لمي الدور يا ولية..عشان ربنا يرزقهم بالخلف الصالح.

وانطلقت صرخة الوليد "هاجوج"..الذي صمم أن يسميه بهذا الاسم..تجمع الجيران في الحي الطيب فأعانوها في فترة ولادتها..حتى حضر أبوها..ليفرح بحفيده..ورجته ابنته ألا يخبر "أم شرويدي" بما رزقهم الله ولكن الرجل قال في تأكيد:

– معقول يا بنتي..ده ابنهم وشايل اسمهم.

ذهب الأب ليبلغهم..ففرح "حجازي" بحفيده..واخفت زوجته فرحتها وقالت:

– ما هو انت قلت يا حجازي..الفاس وقعت في الراس.

ذهب الجميع لتهنئة "محاسن وشرويدي".."حجازي" فرحاً والأم على مضض جرجرت قدميها.

حاول "شرويدي" أن يستميل أمه إلى جانبه لترضى عن زوجته حتى يعودا ويعيشان في كنفهما..فقد عانى الأمرين من العمل ليلاً نهاراً في المقاهي تاركاً زوجته وحدها طوال النهار..لكنها قالت:

– لا يا روح أمك..اللي عاوز الدح ما يقولش أح.

****

خروجه فجراً في شتاء بارد..وعمله بالمقهى في جو ساخن..أثر على

صحته..حتى وصل الأمر إلى التهاب رئوي حاد اثر على جهازه التنفسي فكان طريحاً لسرير في مستشفى الصدر..ومنعوها الأطباء من زيارته هي ووليدها خوفاً من انتقال العدوى لهما.
تنظر إليه من باب العنبر بعيداً وتبكي في حرارة..سعادتها لم تكتمل ببيت يخصهما..يضمهما ويضم حبهما وقلبيهما الضعيفان.
تعود إلى البيت تندب حظها..زوجها رزقه يومي بالكاد يكفي احتياجاتهما وطفلهما..يحضر الأب ليحزن على ما أصاب زوج ابنته..يترك لهما مبلغاً من المال ويعرض عليها أن ترافقه لتعيش معه في عشتهم حتى يتماثل زوجهما للشفاء ولكنها تصر على البقاء في بيتها..وسرعان ما يحضر أبوه وأمه لزيارته ولا يخلو الأمر من تهكم أمه التي تقول:

- اصلها أقدام..الواد طالع من تحت ايدي زي الفل..يرقد الرقدة دي..الله يجازي اللي كان السبب.

تخفي دموعها خلف مقلتيها..تتحمل لسان حماتها "الزالف" حتى تسير حياتها بطريقة طبيعية..عليها أن تتحمل من اجل حبهما.

تتوسط لها إحدى جاراتها..لتلحقها عند إحدى الخياطات المشهورات..لتعلمها الخياطة..فكانت تترك طفلها عند الجيران وتذهب صباحاً لتمارس عملها وعصراً عند زوجها في المستشفى وليلاً مع ابنها.

هذه المرة ألحت عليها حماتها أن تعود بطفلها لتعيش معهم..وقال حماها:

- ربنا يا بنتي يرزقنا برزقك انتي وجوزك وابنك..واهو ابوكي مش مخلي وايده بايدي..يعني مش حنحسن إليكم..ده حقكم علينا.

ترددت..فهي في غربتها وعيشتها بمفردها افضل لها من لسان حماتها..فهي تتظاهر بالعطف والحنان ليس إلا لخاطر حفيدها وابنها.

وسرعان ما خرج زوجها من المستشفى..لكن المرض اصبح مزمناً..لا يمكنه من العمل في جو حار أو بارد..فقعد طريح فراش بيتهما.

تخرج صباحاً لا تعود إلا ليلاً من عملها..حتى شربت الصنعة..واعتمدت عليها صاحبة الاتيليه..بل إن بعض الزبائن يأتون من اجل مهاراتها وذوقها الرفيع خاصة في فساتين الخطوبة والزفاف..وبدأت عجلة الحياة تسير..ولكن "شرويدي" ينظر إليها

عندما تأتي من عملها قد أنهكت قواها وتجري لإعداد طعامه وطعام طفلها..فيبكي في قلبه ويقول:

– كان نفسي اخليكي برنسيسة زمانك يا بنت الناس الطيبين.

– ما هو أنا برضه بأنفاسك عايشة ومستورة.

تنطلق الآهات من قلبه ويقول:

– مستورة بتعبك وشقاك..وساترانا إحنا كمان.

– الصبر جميل يا شرويدي..بكرة ترجع احسن مما كنت..إحنا عايشين بنفسك يا غالي.

يرتمي على يديها ويقبلها وينفجر في البكاء.

****

"حجازي"..مات..وهو يقوم بري الأرض..حمله "نفريت" إلى عشته..ظلت زوجته تصرخ وتولول..أحد الجيران ذهب إلى "شرويدي" و"محاسن" اللذين استقبلا الخبر بالفزع فهرعا إلى "هاجوج"..حزن على أبيه..حزنت على حماها الرجل الطيب الذي قدم لها كل الخير..لهاهم الحزن عن التكفير في مكان دفنه..هل يدفناه في الشرقية موطن رأسه..فرفضت الأم..فلن تتمكن من زيارته كل أسبوع كعادة زيارة القبور لأهل المدينة والتي انعكست على

ضواحيها التي أضيفت إليها..فعرض أحد رجال البلدة..أن يدفن في مقبرة حديثة بناها في مقابر بورسعيد..لم يدخلها أحد من أفراد أسرته..فوافقوا لسرعة إكرام الميت بدفنه.

في المقابر عز على "شرويدي" أن يدفن أباه بعيداً عن مقابر أسرته..بل يدفن كصدقة من صاحب المقبرة..فعرض عليه أن يشارك الرجل في ثمن المقبرة لتكون لأسرتيهما..ولم يتوان الرجل عن قبول العرض وقال:

- يا بني..أنا ومراتي وبنت واحدة..وبعدنا التربة هتتقفل ومش حتتفتح طول العمر..أهي تسعنا..وإحنا كلنا غرب في ارض الله الواسعة.

****

أقاما فترة مع أمه..وكانت "محاسن" تركب قطار الركاب في الصباح الباكر من محطة الرسوة لتذهب لعملها الذي اعترضت عليه حماها في بادئ الأمر..تعود في قطار الثامنة والنصف ليلاً من بورسعيد.

تماثل "شرويدي" للشفاء..فعرض عليه أحد الباعة المتجولين في القطارات أن يساعده لبيع "بسبوسة الشامي" المشهورة..فلم يتوان هو الأخر عن الالتحاق بذلك العمل..فكان يركب القطار صباحاً مع

زوجته ثم يتسلم البضاعة لبيعها في القطار حتى الإسماعيلية ويعود عصراً..حاول المهربين إقناعه بالتهريب عبر القطار..ولكنه رفض رفضاً مطلقاً..وعندما كان يعود عصراً يتوجه الى القناة لممارسة هوايته القديمة في الصيد ليوفر وجبة يومية لأسرته وحماه الذي كان يتردد على عشتهم يومياً لتناول الغذاء معهم.

****

كان يدخر اغلب ما يكسبه على ما تكسبه "محاسن" في دفتر توفير..كانا يخافان من المستقبلي..وسرعان ما رزقهما الله بطفل آخر أسموه "حجازي".

توطدت علاقة "أم شرويدي بنفريت"..الذي اصبح يشرف على الأرض الزراعية التي آلت بالميراث لها ولابنها وابنتها..مما شجع الأب أن يتقدم للزواج من "أم شرويدي" الذي رحب بهذا النسب.

تدور عجلة الزمن على تلك الأسرة بعيداً عن جذورها لتكون جذور جديدة لأولاد نسبوا لمدينة بورسعيد..اصبحوا أهلها..استخرجت شهادات ميلادهم من سجلها المدني ليزداد عدد سكان المدينة الصغيرة..لتصبح مدينة كبيرة العدد في مساحات محدودة.

واصبح الأبناء..ثلاثة..ولدان وابنة اسمها "ميرهان" اسم جديد على

أسرة نزحت من الريف وتجاري المدينة بأسماء ذلك العصر.

مع الأيام كبر المبلغ المدخر..نفعهم عندما كبرت السيدة صاحبة اتيليه الخياطة..فعرضته على "محاسن"..فلم تتوان عن شرائه..واصبح "شرويدي" صاحب المحل ومديراً له..و"محاسن" تقوم بأعمال الحياكة..حتى زارتها "عزت" لسمعتها..تذكرت كل منهما الأخرى..وقد أحضرت "لطيفة ورعاية" ليكن زبائن لمحلها.

****

ليلة العيد يشتريان اللحم..ويذهبان لقضائه مع الأهل في هاجوج..بعد أن تزوج ابن "نفريت" من شقيقة "شرويدي"..يركبان القطار ويترلان في محطة الرسوة هم وأولادهم..يجرون ناحية جدهم..وجدتهم..وعمتهم وخالهم..الجد والجدة يفرحان بالأحفاد..وأصغرهم "ميرهان" التي تجلس على حجر جدها "نفريت" وتسأله عن اسمه الغريب..فيضحك ويبدو فمه قد خلا من الضروس والأسنان ويقول:

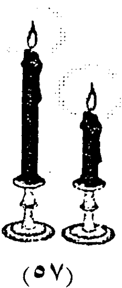
- . أمي هي اللي سمتني الاسم ده اصلها كانت بتسمع ألف ليلة وليلة في الراديو في رمضان أيام زمان..وسمعت حكاية منها

لواحد عفريت اسمه نفريت وكان بيحب أميرة بنت ملك الجان..لكن رفضت تتجوزه عشان أهلها من الجان المسلم وهو من الشياطين الكفار..وسحرها وخلى جسمها من الرخام..لحد بطل الحدوتة ما خلصها من سحره وكانت عنده مشكلة في حياته وحلتها له بطريقة الجان.

ظلت الطفلة تضحك على الحكاية بعد أن كانت مشدودة إليها وقالت في جرأة:

– يعني انت عفريت يا جدي.

الجميع يضحكون في جو اسري دافئ..في ارض جديدة عاشوا عليها..شربوا من مائها وأكلوا من طعامها وتنفسوا نسمات يود بحرها..واصبحوا جزء من كيانها..حتى لو كان في أطرافها..في بلد تستقبل الغريب بالأحضان من أي بلد كان..ويكبر ويعلى ويبقى له بها شان.



عزية أبو عوف

العودة المتأخرة

"صيام الكواليني"..هاجر إلى كفر الشيخ..ومعه زوجته "ريحانة" تزوجا في منتصف الستينات..جارته في حي العرب..كان يملك عربة "حنطور" ذات جلد ابيض ولها فانوسان يبرقان..يضئ حارته الضيقة عندما يعود آخر الليل بعد مشاويره مع السائحين داخل المدينة.."الحنطور" مميز بنظافته وأريكته المصنوعة من القطيفة الزرقاء..الحصان الذي يجره..أشهب قوي..على ظهره غطاء جلدي ابيض بنفس لون الحنطور.

السائحين المترددين على البلد يعرفونه..ويبحثون عنه بمجرد رسو سفينتهم أمام باب رقم ٨..يتسابقون إليه..يتذكرهم..يحدثهم بلغتهم الأسبانية..يتجول بهم بالبلدة طولاً وعرضاً.

أيام كانت كالحلم..حياته ميسورة وزوجته متأنقة..تستعمل اجمل العطور التي يأخذها هدايا من السائحين..لكن لم يرزقه الله بأولاد..مما كان يؤرقه ويؤرقها..فكانت تخشى أن يطلقها..أو على الأقل يتزوج عليها..لكن حبهما ألهاهما عن التفكير في الإنجاب.

تستمر الأحلام جميلة حتى حرب الاستنزاف في ١٩٦٩..يفوقان من أحلامهما على قذيفة تهدم البيت القديم..وتمتد النيران إلى "الحنطور"..جرى هو وزوجته مثل أهل الحي..جرى على "الحنطور"..حاول أن يطفئ النيران ولكنه لم يستطع..حاول فك الحصان من "الحنطور" ولكن النيران امتدت إلى الغطاء الموضوع على ظهره..فأتى عليه.

****

الهجرة..أمر لابد منه..تجمع الأهالي في سيارات لوري لتهجيرهم من المدينة..خرجا بملابسهما ولا شئ آخر..احترق العفش..احترقت النقود التي كان يدخرها في صندوق خشبي..تحركت السيارات إلى الطريق الساحلي الموازي للجميل..كان الركاب ينظرون إلى بعضهم في صمت وقد اعتلى الوجوم وجوههم..ثم تصرخ امرأة فقدت ابنها..وأخرى فقدت زوجها..والسيارة تتحرك إلى وجهة لا يعلمونها.

وصلوا دمياط..ثم اتجهوا إلى رأس البر..العشش ممتلئة بالمهجرين..لا مكان لهم..تتحرك السيارات في طريق

المنصورة..تتوقف السيارة ليترل من فيها..وتتحرك باقي السيارات..ثم يتجه إلى كفر الشيخ..في إحدى قراها كان استقرارهم..بيت ريفي..سلموهم بطاطين وبعض الملابس..وعليهم أن يتقبلوا تلك الحياة الجديدة..الغريبة عن موطنهم الأصلي الذي اعتادوا على العيش فيه..وينتظروا إعانة المهجرين الشهرية من الشئون الاجتماعية.

****

لا ينام..يظل يفكر طوال الليل فيما آل إليه حاله وحال زوجته..بالأمس وقبل الأمس كان يعيش في أحضان مدينة..وفي أحد أحيائها الشعبية الدافئة..بين أناس يعرف طبيعتهم السمحة وعاداتهم وتقاليدهم..في قلب مدينة لا تنام ليلاً..البواخر على القناة..بحارتها يترلون إلى المدينة..البمبوطية وعمال البحر يظلون ساهرين لقدوم تلك المراكب..البلد ليلها كنهارها..جميع المحلات مفتوحة تستقبل الذاهبين والعائدين من القناة ليشتروا منها..اسماك..لحوم..بقالة..حلوى التمرية والسمنية.

هنا..في تلك القرية..ينامون بعد صلاة العشاء..تتوقف الحياة ويحل الظلام على كل مكان..لا أعمدة إنارة..لا إنارة داخل

البيوت..لمبة الجاز..رائحة الدخان المنبعث من قش الأرز المحترق..صوت الضفادع وصراصير الحقول.

ينظر إلى لمبة الجاز..يلمع زجاجها..كما كان يلمع زجاج فانوس الحنطور..الذي كانت قوائمه من نحاس لامع كالذهب وزجاجه كالبلور الذي يعكس أضواء عديدة وكأنه ثريا تزين قصر كبير.

يبكي..يخشى أن يحل عليه النهار وهو بدون عمل..وبدون أمل..يظل ينظر لزوجته التي تنام والدموع تتساقط على وجنتيها..تصحو من نومها..تمسح دموعها وتقول له في صوت منكسر:

- نام يا صيام..بكرة يحلها من لا ينام.

يبكي وينتحب ويقول:

- الله ينتقم من العدو الكافر..اللي شتتنا عشان طمعه في بلادنا..أهل بلاده عايشين في أمان وحرموا علينا الأمان وكتبوا علينا نتشتت.

****

أشار عليه جاره في القرية أن يعاونه في عمل الأسبات والمقاطف التي يبيعها في سوق البلدة كل أسبوع..رجل طيب يدعى

"خميس"..زوجته متوفاة وله ولد يبلغ من العمر خمس سنوات يدعى "رضوان".

يذهب معه لشراء المواد اللازمة من خوص معين..يحضران منه كمية كبيرة على جمل..يخزنها الرجل في بيته ويبدأ العمل صباح اليوم التالي حتى غروب الشمس..تعلم الصنعة بسرعة..فدخله منها يعينه على حياته..بيعها في السوق يدر ربحاً قليلاً..ولكنه يحمد الله على ما يتقاضاه.

قبل الموالد المشهورة بمنطقة بحري..مثل مولد سيدي إبراهيم الدسوقي ومولد السيد البدوي يكون العمل له شكل آخر..فيصبغ خصلات الخوص بالأحمر والأخضر ليصنع منها اسبات صغيرة للحمص وحب العزيز والحلوى التي تباع أثناء المولد لتجار تلك الأصناف.

****

لم يمض عام على الهجرة حتى توفي "خميس" متأثراً بمرض أصابه في الفترة الأخيرة..قبل أن يموت أوصاه بابنه..واخبره انه أتى لتلك القرية هرباً من أهله منذ أن كان صغيراً..فقد اجبره أبوه أن يتزوج من ابنة عمه..ولكنه كان يحب جارته "هنية" التي تزوج بها دون

أهليهما وهرب بها إلى القاهرة..ثم استقر بهم المقام بتلك القرية.
اخذ الولد معه وتولى تربيته كابن له..واستمر في العمل بمهنة تصنيع الاسبات والمقاطف التي أجاد صنعتها.

في نفس العام حملت زوجته فظل يهلل ويقول:

- بركاتك يا سيدي إبراهيم يا دسوقي يا ما دعيت في مقامك إن ربنا يرزقني بالخلف.

كانت المولود بنت..اسماها "عواطف"..وكانت فاتحة خير عليه فتوسعت تجارته الجديدة فأصبحت حياته لصيقة بتلك البلدة.

سرعان ما مرت الأيام..وقامت الحرب..وعادت الحياة لمدن القناة..لكنه لم يرجع بورسعيد بعد أن تعلق بتلك البلدة..والشوق يشده إلى وطنه ولكن لماذا يعود وقد فقد البيت ورأس المال المتمثل في "الحنطور"..حتى شقيقته "توكل" لم يسمع عنها شيئاً لا هي ولا زوجها ولا ولدها..و"بهنسي" شقيق زوجته هو الآخر انقطعت صلته بهم.

****

في عام ١٩٧٦..التحقت "عواطف" بالمدرسة الابتدائية بالقرية..كان أبوها يتمنى أن يراها متعلمة وعاملة بوظيفة

حكومية..فالمهن الحرة لا مستقبل لها ولا معاش..وقد اصبح "رضوان" في الثانية عشرة من عمره..يغير من "عواطف" لأنها تتعلم..فلم يسمح أبوه له بدخول المدرسة..وكانا دائماً يتشاجران عندما يراها تذاكر.

شده الشوق لرؤية أخته "توكل" فقرر الذهاب إلى بورسعيد في العيد الكبير في ١٩٨٠..ذهب إلى حيهم..ظل ينظر إلى منزلهم الذي تهدم..ظل يبحث عن أصدقائه وعن شقيق زوجته..فلم يجدهما..وجد مشاقة حينما عرف عنوان أخته من أحد الجيران..فهي تقيم في خان الخليلي..فسأل الجار وهو مذهول:

- خان الخليلي..دي في مصر!

ضحك الجار وقال:

- في بورسعيد..ورا سيما الأهلي..عند حارة العيد اللي كانت موجودة هناك قبل الهجرة.

ذهب وهو يسابق الريح إلى المكان الذي دله عليه الجار..فوجده عبارة عن مساكن من دور واحد تسمى الإيواء..بنتها المحافظة كمنطقة عشوائية للمهاجرين الذين عادوا ولم يجدوا لهم مأوى..ظل يسأل حتى وصل إلى عشتها..تقابلا بالأحضان والبكاء..سنوات

طويلة باعدت بين الأشقاء..لهتهم الهجرة ومآسيها عن السؤال عن بعضهم البعض وكأن القيامة قامت والكل يقول "نفسي..نفسي".

قابله زوج أخته بترحاب بالغ..عرف انه ترك مهنته "سباك" بعد أن أصيب بمرض "الرعاش" في يديه أثناء الهجرة في المنوفية وابنه "عربي" يعمل في نفس المهنة في مناطق التعمير الجديدة ببورسعيد في حي العاشر وحي ٦ أكتوبر.

سألهم عن "بهنسي" شقيق زوجته فأخبروه انه يقيم أيضاً في منطقة عشوائية تسمى "الجبل" خلف جبانة بورسعيد..واصطحبه "عربي" حتى هناك..فظل مذهولاً لحال البلد التي امتدت لكل أطرافها..وجده..هو وزوجته "عنايات" وابنهما "زايد" في الخامسة عشرة من عمره..قابلاه بحرارة بالغة..سأله "بهنسي" عن أخته..تمنى لو جاءت معه وقال:

- معقول يا ولاد..مصير الحي يتلاقى.
- بقى كده يا بهنسي..ما تسألش عن أختك الوحيدة.
- اعذرنا يا صيام..إحنا هاجرنا في المنوفية..وانتم رحتم كفر الشيخ وخالتك عيوشة في قنا..وعمك رشيدي في سوهاج..اتفرق الجمع..وكل واحد انشغل بحاله.

ظل "صيام" يتفحص "العشة" المكونة من حجرتين وصالة صغيرة..وجد ثلاجة مستوردة وتليفزيون ملون وبوتاجاز بالكهرباء..تسائل في فضول قائلاً:

- أمال انت لسه شغال في الصحة يا بهنسي.
- صحة إيه يا عم صيام..مرتبها ما يأكلش عيش حاف..أنا استقلت وباشتغل حر نفسي.
- وابنك زايد.
- أنا زي أبويا يا عم صيام..بالقط رزقي في المنطقة الحرة..البلد على قولة أبويا اتغيرت..أنا ما اوعاش على البلد زمان كان شكلها إيه..لكن اللي ماعهوش قرش في البلد يموت من الجوع.

سرح "صيام" بفكره فأدرك انهم يعملان في عمل غير مشروع..خاصة انهما لم يفصحا عن طبيعة عملهما..تناول معهم الغداء وعاد عصراً في طريقه إلى بيت شقيقته.

في الطريق سرعان ما هبت عاصفة شديدة لم تتعرض إليها البلاد من قبل..وكان ذلك ثاني أيام عيد الأضحى..وسرعان ما تحولت العاصفة إلى إعصار شديد وأمطار غزيرة..فلم يستطع مقاومة الهواء الذي

كان يزيح كل شئ مكانه..وظل يصارع العاصفة حتى وصل إلى مكان سكن أخته..فوجد سيارة الإسعاف تحملها..والنساء يبكين ويولولن..فقد سقط عليها السلك الكهربائي أثناء "لم الغسيل"..ركب سيارة الإسعاف مع ابنها وقد تصادف وجود زوجها خارج السكن.

في المستشفى لفظت أنفاسها الأخيرة..فظل يبكي ويصرخ في ذهول..وكأنه لم يأت لزيارتها بل ليودعها.

انهار زوجها..عندما علم ولحق بهم..كان الإعصار سبب في وفاة كثير من أهل البلد..توافدوا صرعى على المستشفى..وهدمت بيوت وطارت أسقف اغلب "العشش"..كان يوماً حزيناً على البلد..فحول أفراح العيد إلى بكاء وعويل..وكان بعض اللئام يقول:

- ده غضب من ربنا على البلد..بعد ما اتحولت منطقة حرة..ناس كتير نست ربها واتغرت بالمال ورجليها خدت على سكة الحرام.

في صباح اليوم التالي ودعوها إلى مثواها الأخير ودفنت إلى جانب أمه في مقبرة لم تفتح منذ الستينات قبل الهجرة.عاد..استقل الأتوبيس من بورسعيد حتى دمياط..وقد اعتلا وجهه الحزن..أفكار

تراوده..هل يعود إلى مسقط رأسه ويعيش في إحد عشوائيتها..الأمر لا يختلف عن سكن في موطن الهجرة..فهو يقيم في بيت ريفي أشبه "بعشش" العشوائيات..لم يستطع اتخاذ القرار..ونزل في دمياط واستقل "بيجو" حتى المنصورة..ثم ركب الأتوبيس حتى كفر الشيخ. وما أن رأى زوجته..انفجر في البكاء..وحينما اخبرها حزنت لحزنه..ولكنها تماسكت حينما اخبرها بحال أخيها.

دخل إلى فرشته والتفكير يقتله..هل سيعيش غريباً في ارض المهجر..أم يعود إلى لبلدته ليقضي بها أيامه الأخيرة..وتعيش ابنته في المدينة التي قضى فيها اغلب عمره..ولكن هل سيترك رضوان؟! وهو الآن يقوم بدور الأب وزوجته تقوم بدور الأم وابنته تقوم بدور الأخت.

****

عرض عليه الأمر..فبكى..انه لا يعرف موطن غير المكان الذي يستقر فيه..وعاش فيه مع أبيه وأمه..ويعرف انه من صعيد مصر..لكن كيف سيعيش بين أهل أبيه وأمه اللذان عارضا زواجهما..ظل يفكر..هل سيترك الرجل الذي اكمل مشوار تربيته..وهل سيترك صنعته؟! هل ستبعد عنه "عواطف" التي ارتبط

بها عاطفياً..ولكن لم يعبر عن حبه لها لأنها مازالت صغيرة وقلبها اخضر لا يعرف معنى كلمة حب..ظل "صيام" في حيرة من أمره..هل يعود الآن؟..أم يؤجل عودته..ويؤجلها إلى متى ولماذا؟..فقر قراره على العودة..حزنت ابنته "عواطف" التي لم تعرف بلداً غير التي ولدت فيها وتربت فيها..أمها تحكي لها عن بورسعيد وجمالها..وطيبة أهلها..وبحرها وهواها وذكريات عمرها..لكنها لم تتأثر بحكاوي أمها..لا تعرف غير المكان الذي تعيش فيه الآن.

حملوا عفشهم البسيط والفودي وهو عبارة عن سرير كبير وسرير صغير يخص "عواطف" ودولاب يحتفظون فيه بملابسهم القليلة..جلباب الأب الذي استبدله بالبنطلون والقميص..وجلباب الأم الأسود الذي استغنت عنه بفساتين مزركشة تركتها في بورسعيد لتحترق مع ما احترق من البيت.

حملوا العفش على سيارة ربع نقل..واخترقت المدن والقرى الصغيرة حتى وصلوا إلى طريق دمياط-بورسعيد..وما أن وقع بصر "عواطف" على البحر المتسع وشمت اليود فادركت أن لأمها وأبيها حق في العودة لموطنهم..سألت أبيها في تلقائية:

- هو ده البحر المالح يا ابا.

- هو ده يا حبيبتي..اللي ياما قعدنا على شطه أنا وأمك أيام ما كنا بنحب بعض.

تأثرت بكلمة "حب" فهي قد تركت حبها هناك في كفر الشيخ.."رضوان" الذي لم تعرف أن مشاعره ناحيتها تسمى "حب".

دخلت السيارة بورسعيد..توجه السائق إلى "خان الخليلي" حيث بيت زوج أخته..رحب به الأهل أيما ترحيب وقال في حب:

- يا أهلاً بريحة الحبايب اللي فاتونا وراحو.

ثم ظل كل منهما يبكي الفقيدة "توكل" التي قد مر على وفاتها اكثر من ستة اشهر.

عرف أن ابنه "بهروز" تزوج وعاش في إحدى شقق المنطقة السابعة..بعد أن تيسرت حالته المادية وتركه وحده في "العشة"..فعرض عليهم الإقامة معه..وافق "صيام" ولكن زوجته همست في أذنه..أنها تود أن تقيم مع أخيها "بهنسي" حتى يستقر بهم المقام في أحد الايواءات.

وافق علي عرضها..ثم اخذها هي و"عواطف" لتقيم مع أخيها..الذي رحب بها هو وزوجته وابنه "زايد" ولكن حالهما اصبح لا يسرهما..فقد تشتت شملهم بعد أن حميتهم سماء بلدهم.

كانت ليلة طويلة عصيبة على "رضوان" مرت عليه كأنها دهر من الزمن..يتذكر "صيام" الذي كان يشاركه أصول صنعته..المكان موحش جداً دون أسرته التي لا يعرف غيرها..تذكر نظرات "عواطف" وعينيها التي ذرفت دمعاً..حاول أن يتماسك أمامها..حاول أن يبوح لها بحبه الصغير لكن لم يستطع..وماذا إذا عبر لها عن حبه؟..فهي ما زالت صغيرة..وقد بعدت عنه وان كان يعلم أن هذا رغماً عنها.

هي الأخرى باتت ليلتها في وحشة في بيت خالها..في داخلها سعيدة لان لها أسرة وعزوة..ولكنها افتقدت روائح اعتادت أن تشمها..رائحة الخبز الطازج "المرحرح" في بيوت الفلاحين..رائحة وقيد الفرن..حتى صوت صراصير الحقول ونقيق الضفادع وكأنها سيمفونية تستروحها نفسها..لن تعود تلك المفردات التي تكون معطيات الريف المصري بخيره وشره..بحلوه ومره..فكرت فيه..هو أخ غالي..ولدت فوجدته أمام ناظريها..أمها كانت تقول:

- ده اخوكي رضوان الكبير.

عرفت عندما شبت أظافرها انه قريبهم وليس بأخيها..ثم عرفت انه اليتيم ابن الجيران الذي ليس له حول ولا قوة.

نهض صباحاً بعد ليلة طويلة أرقته..ليجد نفسه وحيداً عليه أن يعد طعام إفطاره بنفسه..ويعد طعام غذائه وعشائه..راحت الأم التي كانت تحل محل أمه وأبيه..المرة الأولى التي يشعر فيها بشقاء الحياة..ولكنه عليه أن يستمر في عمله ليعيش..لمن يعيش..وأي هدف يسعى إليه..المأكل والمشرب والملبس والعمل..مصيره أن يتزوج..لا زوجة تليق له غير "عواطف" التي أصبحت في الثالثة عشر..هي بمنطق أهل قريتهم يمكن أن تكون زوجة له في تلك السن الصغيرة..ولكن لا يملك شيئاً إلا البكاء على ذكريات الماضي الجميل وإطلال الحاضر المرير.

هي..اصطحبها خالها مع أمها ليقدموا لها في المدرسة الإعدادية ببورسعيد..التحقت بمدرسة بورسعيد الإعدادية للبنات..مبنى فخم يعبر عن تاريخ ذلك البلد العريق..المبنى ضخم..كلاسيك..يختلف عن المدرسة التي كانت تذهب إليها في الأرياف..البنات مختلفات..يرتدين اجمل الثياب..حتى لو كانت في شكل الزي المدرسي..ذهبت بملابس متواضعة للغاية..كانت في الأرياف تشعر أنها "فرخة بكشك" في وسط بنات الريف الفقيرات..تعرفت على مثيلاتها في نفس المستوى الاجتماعي "لطيفة، رعاية، محاسن"..ربطتهم

زمالة الدراسة وصداقة التفكير الواحد النابع من بيئاتهم المتشابهة..وتوطدت علاقتها بهن..واصبحن يسرن مع بعضهن في وقت الفسحة وبعد انتهاء الدراسة.

****

بدأت تميل للبلد بعد أن اصطحبها أبوها وأمها في الإجازة الصيفية..بعد أن نجحت في الصف الثاني الإعدادي..تنظر لمياه البحر فتجد صورته أمامها على صفحة المياه..وكان أبوها يختار مكاناً بعيداً عن شاطئ المدينة في منطقة تسمى "المغربي"..يقع في تلك المنطقة مقام صغير..لشيخ يدعى "المغربي" وسمي الشاطئ بعد ذلك باسمه..مكان يذهب إليه كل من يلتمس الهدوء.

حكى لها عن الشيخ "المغربي" وعن الأساطير التي حكاها الناس عنه..فكانوا يقولون انه محارب قديم..حارب مع من حاربوا أثناء الحملة الفرنسية..والبعض قال انه كان في رشيد وحارب مع الإنجليز..فذهبت إليه بخطى بطيئة وظلت تدعو أن يقربها الله من "رضوان" ويقربه منها.

في نفس الآن كان في مقام الشيخ "الدسوقي"..يدعو الله أن يقربها منه ويقربه منها.

تعــود إلى بيتها تفكر فيه..ويعود إلى بيته يفكر فيها..يعمل ليلاً نهاراً ويضــع القــرش على الآخر..وكلما جمع عشرة جنيهات ذهب إلى "البوسطة" ليضعها في دفتر توفير باسمه..مهرها..الذي نذر بينه وبين نفسه ألا يتصرف في قرش منه.

****

حصــلت علــى الإعدادية..والصديقات تفرقن.."محاسن" تركت الدراســة.."لطــيفة" و"رعايــة" و"عــزت" انــتقلن إلى المدرسة الــثانوية..وهــي الــتحقت بمدرســة الممرضــات..مما اثلج صدر أبيها..الذي ضمن أنها ستكون موظفة في الحكومة لها راتبها ومعاشها. رآها "بهروز" ابن عمتها..راقته..طلب من خاله أن يقترن بها..وكان طلبه مفاجأة له..فهو رجل متزوج..ولكنه أصر قائلاً:

- أنا اتسرعت في جوازتي يا خالي..مش مرتاح معاها..ده غير إنهــا ما بتخلفش..والشرع بيديني حق أتجوز أربعة..وأنا ابن عمــتها وأولى بــيها وما تنساش اني صنايعي وكسيب..ويا سيدي هاجيب لها شقة لوحدها.

ظل يقلب كلامه في رأسه وعرض على زوجته الأمر..فرفضت رفضاً قاطعاً وقالت:

- المتعلمة تتجوز الجاهل..اللي متجوز..ده اخويا عرض عليا إن يخطبها لزايد أنا ما رضتش عشان هو برضه مش متعلم..ومن يومها ومراته قرفاني في عيشتي.
- ده واد مهرب زي أبوه يا أم عواطف.
- مــا هــو عشان كده لازم أسيب البيت ده..أنا شفت عشة بتاعة مندور الكواحيلي..الراجل مات و....

قاطعها متأثراً:

- مندور مات..من امتى؟.
- مــن أسبوع..وساب مراته ومعاها تلت ولايا..حتروح بيهم على بلدهم المطرية.
- والحنطور بتاعه.
- بيفكروا يبيعوه..خلاص..تستحملي قعدتك مع اخوكي وأنا اســتحمل قعدتي مع جوز أختي..والقرشين اللي معانا ندفعهم مقدم للحنطور..وارجع الزمن الاولاني.
- يبقــى اعدي عليها الساعة دي واتفق معاها..نديها الفلوس اللي حوشناها..جزء منها للحنطور وجزء منها للعشة.

- أنا ما اطمنش لحد غيرك انتي والاسطى صيام..ده كان حبيب مندور الروح بالروح..واللي عندكم مضمون يا أختي.
- وكلـــها شهرين تلاتة بكتيره حيجي لك الاسطى صيام لحد المطرية ويديكي اللي ربنا يأذن بيه..يا أم البنات.

اتفقا..وما هي إلا أيام قليلة..وانتقلوا جميعاً للعشة..التي جمعت شملهم بعـــد فرقة اكتر من عامين..قضيتها عند أخيها..وقضاها عند زوج أختـــه..ولكن الأمر لم يمر على خير..فكانت قطيعة بينها وبين أخيها لرفضها زواج ابنه بابنتها..وكذا بينه وبين زوج أخته وابنه.

لا يصـــدقان أعيـــنهما ان جمعهمـــا مكـــان يخصهما حتى لو كان متدنياً..وبدأت تتدخل بلمسات من يديها لتجعلها وكأنها قصراً.

امسك "بالحنطور"..وظل يلاغي الحصان ويقول:

- انـــت..اسمـــك إيه..أنا فاكر اسم الفرسة أمك..كان اسمها ســـكرة..أنـــت أكـــيد قريب الحصان اللي كان عندي..أنا وصـــاحبك مـــندور اشـــترينا أمـــك..ومعاهم حصاني من الشـــرقية..كانـــت فرحتنا بيهم ما تتقدرش..يا ترى حتبقى صاحبي.

هـــز الحصان رأسه..وكأنه يسمع ما يقول..فراح يبكي من الفرحة

وقال:

- حترجعلي الزمن الاولاني..حاسرح بيكي على كل المراكب اليوناني والطلياني..والأسباني..آه..ما أنا اعرف ارطن بكل لغوة..أنا ابن القنال والمينا..بس لازم هاودني يا أخينا..أنا هاوضب الخنطور واغيرله كسوته..واعملك كسوة من نفس لونه..وهارمح بيك بورسعيد طولها بعرضها..وهاهز الأرض.

****

ذهب إلى شارع الميناء "السلطان حسين"..وقف بالحنطور أمام باب ٨..الخاص بالمراكب السياحية..اشتم رائحة الميناء التي اعتادها..انتظر خروج البحارة أو الركاب..لم يخرج أحد من الميناء..دقق النظر للقناة..لم يجد سفن..احبط..سأل أحد البمبوطية الخارجين من الميناء:

- لو سمحت يا آبا..هو ما فيش مراكب حتربط النهاردة في المينا.

ضحك البمبوطي ساخراً وهو مكفهر الوجه وقال:

- إيه يا عمنا..انت مش من هنا ولا إيه..الحال واقف من ساعت

التفـريعة مـا اتفحـرت..وبقـى هـناك قـنال تانية..زي قنالنا..المراكب بتمشي دايركت..على طول يعني.

اعـتلا الوجـوم وجهه..ثم سار بحنطوره وكأنه في ذهول..يقول في نفسه الحزينة "معقول..معقول يا قنال..ياللي المراكب كانت بتزغرط جواكي..يعني إيه..ما عدش لا ليا ولا لحنطوري أي لازمة".

ظـل سـائراً بحنطوره حتى وصل منطقة سكنه..وربط الحصان في مربطه..ودخل البيت حزيناً..وما أن رأته زوجته جرت عليه وسألته في تلقائية:

- إيه..رجعت بدري ليه..انت تعبان ولا حاجة.
- مش أنا اللي تعبان..الجو اللي تعبان..ده مش تعبان وبس..ده مات كمان يا أم عواطف.
- إيه اللي جرى يا راجل وقعت قلبي.
- اللي جرى لا يتقال ولا يتقرا.

ثم دخل إلى حجرة نومه يجرجر أقدامه وألقى بنفسه على سريره وهو يحوقل في ذهول.

****

- تبيع إيه يا راجل هو انت لسه الهنيت بيه.

- ولا هـــاهمني بـــيه يـــا أم عواطف..الحنطور..خلاص راحت عليه..لا عاد ينفع في مواصلة ولا فسحة..باين عليا أنا كمان راحت عليا..كنا مستورين في كفر الشيخ.
- ده انت مالكش غير ده كار..استغفر الله.
- معاطـــي الصفتاوي..هيشتريه بمبلغ كويس..هيدفع عشرين جنيه زيادة.
- وحـــتعمل إيـــه الفلوس يا خويا..مصيرها تتصرف زي اللي اتصرف.
- لا يـــا أم عواطـــف..أنـــا حاشـــتري حتـــتين جاموس..أو بقر..ونعيش على حليبهم..زي اغلب اللي عندهم زرايب.
- وهو ده كارك.
- وهو شغل الاقفاص والسبات كان كاري يا أم عواطف..أنا مـــن بكرة هاروح لبكر الزرايبي يشوف لينا زريبة على قد حتتين..وربنا يفرجها من عنده.

اشترى جاموستين واجر لهما زريبة..عمل يشغله طوال الوقت..ويدر ربح بالكاد يعينه على الحياة.

****

تخـــرجت "عواطـــف" واشـــتغلت بإحدى مستشفيات المدينة..حمد
الله..ألها ستتقاضى راتب ثابت ومعلوم وتعينه على تجهيز نفسها..وقد
فوجئ ألها تسأل عن "رضوان" وكأنه محي من ذاكرته..وبمجرد ذكر
اسمه..قرر أن يزوره..فهو لا يعلم لهم عنوان..واعد نفسه للسفر.
وما أن دخلت سيارة الأتوبيس أجواء الريف..بدأت الدموع تنهمر
مـــن عينيه..على زمن اقتطع من عمره في تلك الأماكن ويحمل كثير
من الذكريات حلوها ومرها..وإذا كان حلوها يفوق مرها.
وصل إلى البلدة..قابله الجيران بالترحاب..والكل يتسابق على دعوته
للغـــذاء..مما اثر في نفسيته لفقدانه الجيرة والعشرة..ثم انطلق ناحية
بيت "رضوان"..وجده منهمك في شغله..وقد اصبح شاباً يافعاً يسر
العين..لم يصدق عينيه وقال:

- ده انت لسه في بالي في التو والحال يا عم صيام.

احتضنه الرجل وبكى كل منهما..وشعر وهو في أحضانه انه ابن قد
افتقده وعاد إليه بعد غياب.
ظل "صيام" ينظر إلى البيت باحثاً عن شئ ما أدركه "رضوان" وقال:

- لسه ما جاش النصيب يا عم صيام.

ظـــل "صيام" ينظر إليه وكأنه يريد أن يقول له "انك الرجل الوحيد

الذي يليق بعواطف"..وراح "رضوان" هو الآخر ينظر ويحدث نفسه ويقـــول.."لا زوجة يستحق الاقتران بها إلا عواطف..أتمنى ألا تكون قد ارتبطت بآخر" في داخله يقين أنها لم تتزوج بعد..ثم باغته متسائلاً:

- وازي ست العرايس.

تنبه إليه وقال في لهفة:

- لسه ما بقتش ست العرايس..دي يادوب اتخرجت السنة دي من معهد التمريض في بورسعيد وبقت ممرضه قد الدنيا.

اطرق ثم قال بتردد:

- يعني ما حدش اتكلم عليها يا عم صيام.

قال وهو يبتلع ريقه في سرعة:

- لأ يـــا بـــني..بـــس كـــتير اتقدمـــوا لها..لكن ما كانوش بيعجبوها..لسه النصيب ما جاش.

قال في تردد وحرج:

- طب افرض النصيب جه يا عم صيام.

قال فرحاً دون أن يشعر:

- من بكرة..لو انت عاوز.

ثم عاد يقول في تردد:

- قصدي لو ابن الحلال جاهز..تبقى فرحتي ما تتقدرش لما أبقى جد لولاد بنتي.

قالها في تأكيد:

- وولادي كمان.

احتضـــن كل منهما الآخر في حب وراح "صيام" يبكي في فرحة..ثم اتفـــق علـــى أن يـــزورهم في نهاية الأسبوع بعد أن أعطاه "صيام" العنوان.

****

كـــادت تطير من الفرحة عندما اخبرها بعرض "رضوان" وكذا أمها التي زغردت وقالت:

- اهـــو ابننا ومربينه وعارفينه وعارفين اصله وفصله.. ده في غلاوة عواطف ويمكن اكتر.

سرح وساد وجهه الوجوم وقال:

- بس حيقعدوا فين..دي العشة يادوب لمانا.

اندفعت قائلة:

- أنا باخد نوبتجية ليل في المستشفى لمدة خمستاشر يوم..وباجي الصـــبح..ممكن اقعد في سكن الممرضات لحد ما نرسى على

حل.

– عين العقل يا بنتي..وربنا يكملك بعقلك.

دخلت إلى حجرتها ورتبت السرير وأضافت لمساتها على الحجرة المتواضعة..ثم ألقت بنفسها على السرير تفكر فيه وكيف اصبح الآن..انه كان مفتول العضلات منذ صغره..انفه طويل ولكن عينيه واسعتان..عصبي..يثور لأتفه الأسباب..قد يكون تخلى عن تلك الصفات بعد أن عاش وحده يتحمل مسئولية نفسه بنفسه.

ثم نامت..وحلمت به..وبزواجهما..وزفافهما..كان حلماً جميلاً تنفست فيه انسام الحب الذي باعده الزمان.

****

وصل..قابلته بحفاوة..ظلت تتفحص وجهه وجسده..لقد اصبح رجلاً بمعنى الكلمة..امتدت الأيادي لتعيد ذكرى آخر لقاء..المعنى هذه المرة مختلف..فحرارة اللقاء وتشابك الأيدي جعله يحدد موعد الزواج في اليوم الثاني لوصوله أو الثالث على الأكثر..قاله :

– أنا محوش فلوس الجهاز كله..قرش على قرش كنت باحطه..وابوسه واوشوشه وأقوله انت اللي حتقرب البعيد..وتجمع القلوب.

ضحكت وقالت:

- طـــول عمرك ضقرم يا رضوان..فاكر لما كنت بتاخد تعريفة من مصروفي كل يوم وتحطه في حصاله.
- اديتهالك وانتي راضية.
- كانوا اتنين جنيه.

كان يتمنى أن يأخذني بين أحضانه ليشعر بدفء جسدها الفاتن..هي الأخرى تمنت أن تعانقه بشدة..ولكن..قالت:

- أنا لازم أروح المستشفى دلوقتي عشان النوبتجية.
- بس لازم تاخدي إجازة من بكرة.
- مش لما الأول نروح بكرة نشوف سكن العرايس اللي جبناه.
- سكن العريس؟!
- ايـــوة يـــا رضـــوان..مـــا هو فيه عشش هنا سموها سكن العرايس..عشان يحلوا أزمة الاسكان.
- أنا هاروح النهاردة وعم "صيام" نشوف واحدة منها وبكرة نفرشها باللي ربنا هيجود بيه علينا.
- أنا مش عاوزة غير سرير ودولاب.
- يا سلام..وتلاجة وبوتجاز..أنا اسمع إن الحاجات دي في

بلدكم سعرها معقول.

ســادت بيــنهما لحظة صمت..ثم امسك بيدها وقبلها..فأغمضت عينيها وتاهت في دنيا أخرى.

****

توســط لــه "صيام" عند جاره الذي يعمل في الميناء "شيال" ليلحقه بأحــد الأعمــال..فاصــطحبه الرجل إلى الميناء التي بمرته بسفنها وأرصــفتها وبضــائعها..وعمــل شيال..المهنة شاقة..ولكنها مجدية مادياً..يعود منهك القوى لينام حتى فجر اليوم الثاني ليعيد الكرة.

وما هي إلا أيام قليلة وتزوجوا..حيث زفهم أهل الحي..وانتقلوا إلى إحــدى عشــش مديــنة العــرائس..الــتي محلــها الآن "مساكن الجوهرة"..كانت الحياة شاقة في البداية..فعليهم أن يعبروا أكوام من الــزبالة..وفي الشــتاء تــتحول المــنطقة إلى مستنقع اصبح مرتعاً للأمــراض..ولكن الحب انتصر على تلك الصعوبات..حتى رزقهم ربهم بالمولود الأول..فكانت فرحة "صيام" وزوجته به تفوق معاناتهم.

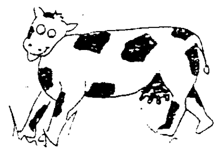
حــل الدور على الأب ليستلم سكناً في حي الزهور الذي بني على مساحة كبيرة من البحيرة..كانت على شط الشارع المواجه لمستشفى النصر..تم ردمها لحل أزمة الإسكان في المدينة المحدودة..ليضاف حي

كامل إلى أحيائها الأربعة "بورفؤاد-الإفرنج-العرب-المناخ".

وقد تنازل "صيام" عن ذلك السكن لابنه وزوجته ورزقهما الله بتوأم..ولد وبنت..كانت الأم تذهب إلى بيت ابنتها يومياً لترعاهما..أحياناً أخرى تأخذهما معها إلى عشتها.

أزيلت منطقة عشوائيات خلف الجبانة المسماة بالجبل..منهم من حصل على مسكن ومنهم من عاد إلى بلاده لعدم أحقيته في وحدة سكنية..واستقر الباقي في عزبة أبو عوف..خلف الجبانة ومنطقة الجبل..وسميت أيضاً تلك المنطقة عزبة أبو عوف نسبة إلى رئيس حي المناخ في ذلك الوقت "محمد أبو عوف"..حصل ساكنيها على مكان مبني كزريبة لتربية المواشي وسكن للإقامة.

ويكلف "رضوان" حماه بتربية خروف ليذبحانه في يوم العيد..حيث يذهبون ليلة العيد ومعهم أولادهم لقضاء ليلة العيد في بيت الجد..ويذبحون الخروف صباحاً..يوزعون بعض منها على الجيران ويأكلون الباقي على مدة أربعة أيام.



يوم..فكر فيه أهل المدينة..متى تنتهي المنطقة الحرة التي امتدت قرابة الثمانـــية عشر عاماً..لم يتخذ قرار حاسم بشأنها..ولكنها تقلصت.. معاملة زوار المنطقة الحرة..رفعت قيمة التعريفة الجمركية.

كابوس يزعج الجميع..من يتاجر في بضائع المنطقة الحرة..أو من يخدم زوار المدينة من أصحاب فنادق ومحال لبيع المأكولات..الكثير أعلنوا إفلاســـهم..امـــتلأت سجون بورسعيد من أناس كانوا يعتبروا علية القـــوم لعدم استطاعتهم سداد ديونهم..البسمة تتحول إلى اقتضاب للوجوه..مقلتي العين لم تجف من تساقط الدموع منها.

جلس "نصري وعايش و"بعلاوي" في مكتبهم يضعون أياديهم على وجـــناتهم..بطاقـــات الاســـتيراد الـــتي كانـــوا يشـــتروها مـــن أصـــحابها..ارتفعت قيمتها وعليت ضرائبها..والدولار يقفز قفزات ســـريعة..لم يعملوا حساباً لتلك الأيام..يصرفون ببذخ اعتقاداً منهم أنها ستدوم.

محـــلات كـــثيرة أغلقت..البضائع لم تعد تأتي بالفائدة المادية المرجوة منها..الكثيرون غيروا أنشطتهم.

ماذا يفعلون..هل يغيروا نشاطهم..أي نشاط..وقد تراكمت رؤوس

أموالهم من جراء عمليات التهريب..هل يعودون ليهربوا؟! صحتهم ووضعهم الاجتماعي يحول دون ذلك..وماذا سيهربون والبضائع خارج بورسعيد لا تزيد إلا قليلاً مما جعل الزوار يقلعون عن زيارتها..البضائع المهربة غبر منفذ السلوم..وباقي الموانى أصبحت منافساً خطيراً أمام بضائع المنطقة الحرة.

ماذا يفعلون؟!

ما زاد الطين بلة..زيارة الرجل الكبير للمدينة ومحاولة أحد أبناء البلد اعتراض موكبه..وقتل في الحال.

هل كانت في نيته الغدر..أمرا بات يحير الجميع..فأطفأت المدينة أنوارها التي أضاءت ابتهاجاً بقدومه..واقتلعت

الزينات واللافتات التي تعبر عن حب أهل المدينة تجاهه.

ظهر من يصطاد في المياه العكرة..قالوا..كفاية..لقد أوشكت على الربع قرن من الزمان..إنها عطلت مسيرة الاقتصاد القومي..إنها حكر على عدد محدود من سكان مصر..إنها منافس للمصانع التي انتشرت بطول البلاد وعرضها في مدن العاشر من رمضان والسادس من أكتوبر والإسكندرية..الكل ينادي بتحويل نشاط أهل المدينة..إلى شكل من الأنشطة والبلاد محدودة الموارد..بل لم تزرع من قبل

الاعتماد على السفن العابرة في قناة السويس كتجارة لم تعد تجدي..لا بارقة أمل.

****

وكان القرار..أنها ستنتهي..وتحقق الكابوس الذي يخاف منه أهلها..اصبحوا على حافة الهاوية..سنوات وتنتهي..الكل يفكر ماذا بعد تلك المهلة..وما مصير البضائع المكدسة في مخازن التجار.

الثلاث رجال اتفقوا على أن يخزنوا بضائعهم لمدة عام أو عامين حتى يرتفع سعرها بعد أن يقل حجم الاستيراد الذي فرض على بطاقات الاستيراد.

وكانت الكارثة..حريق ضخم شب بمنطقة حي العرب قبل إفطار رمضان في عام ٢٠٠٣..تهدمت بيوت..مات الكثيرون حرقا..بضائع بملايين الجنيهات أكلتها النيران..من ضمنها مخزن الثلاث شركاء "نصري وعياش وبعلاوي"..بمجرد أن نقل إليهم الخبر طاروا كالمجانين إلى موقع الحريق..اقتحم "نصري" باب المخزن..دخل ليحمل الخزينة التي بها سيولته المادية..مئات الآلاف من الجنيهات بعد أن فتح الخزينة احترقت واحترق بداخل المخزن ولفظ أنفاسه الأخيرة.

****

عاد "خالد"..من رحلة الخيال عبر أطراف مدينته الحبيبة..تفاعل مع الشخصـــيات الـــتي كانت من نسيج خياله..وان كان في الواقع ما يشـــابهها..بل أحياناً ما يتطابق معها..وعاش مع أبطالها كل دقيقة في حـــياقم..عـــز علـــيه أن تكـــون هـــذه نهاية "نصري"..رغم انه كاتـــبها..وكأنه يقول..حضر إلى تلك المدينة غريباً..وانتهت حياته فـــيها غريباً..لا جثمان يوارى..في بلده أو بلد عاش فيها اجمل أيام حياته..بل هي نهاية حياته.

عادت "عزت" مع أمها إلى بلدهم في الريف..عادت بلا طفل يحمل اسم زوج كان لها حبياً..دموعها لا تجف وكأنها صحت من حلم بدا جميلاً وانتهى مع الصباح بكابوس لا تصدقه العين وتأباه الأنفس.

****

عادت "رعاية" مع "عياش" إلى الحرية..يتجول في شوارعها وحواريها كالمجنون..يجري إلى البحيرة وينظر إليها ويضحك في هستريا ويقول:

– انتي كنتي سبب الخير اللي كنت باتمرمغ فيه..وعشان الخير كـــان مـــن تحـــت ميتك..مش سمك يشبع الجواعى..ولا

ولا فيكي سال دمي شهيد زي أبويا وعمي..حترجعيلي اللي كان..كان..واللي كان كان وعمر الزمن ما يرجع لورا.

ما زال جده يسأله في خوف:

- انـت كـنت غطسـان فـين يا عياش..العمر عدى وما بقاش..رجعت للبيت بعد ما البلدوزر جاي يهده..أنا شايفه في الحلم بجيب عاليها واطيها.

تبكي وتنظر لابنها المعوق وتقول:

- راحـت الفلـوس اللـي كانـت حتعوضك..اللي كانت حتعالجك..رجعت تتوه في وسط التايهين يا حبة قلبي يا نور عيني.

ينظر إليها ابنها "رزق" ويضحك في بلاهة وكأنه يود أن يقول "زي ما جه زي ما راح".

****

"لطـيفة" دموعها لا تجف..إنها تندب حالها..لا مال ولا ولد..عاد "بعـلاوي" يتفحص اللنش..يحاول إصلاحه وإعادة الحياة إليه..بدأ قرشـه منه..من حلال..راح القرش الحلال واخذ معه القرش الذي

جاء بالشقاوة والفهلوة..وكلما امسك باللنش تدمع عيناه ويقول:-

- بـــديت بـــيك..وانتهـــيت وأنا تحت رجليك..يا ريت تعود أيامـــك..وبقرشـــك القليل عمر ما حظي حيميل..والقمة مهمـــا كتـــر تمـــنها أو قل..اهي بتسند بطن الجعان..ياكل شـــبار..ياكـــل حنشـــان..اللقمـــة بتبقـــى في الجوف زي العســـل..واهو عاد بينا الزمن ووصل..اللي قطعه العمر في جري ورا القرش سوا كان من حرام ولا حلال.

****

"محاســـن"..تـــركب القطـــار مع زوجها ومعها أولادها إلى شارع الـــتجاري ليشتروا لهم ملابس العيد بما كسبوه طوال العام من قرش انحـــنت لـــه الظهور..مال طهور..ويعودان فرحى بالحياة البسيطة المتصـــلة..الـــتي لا تـــرتفع إلى عنان السماء ولا تتخطى إلى سافل الأرض..ثم يشتريان اللحم للعيد ليأنسوا بأهلهم ويقولان:

- ..نعمـــة واحفظهـــا مـــن الـــزوال..عاوزين الستر وصحة العيال..مش عاوزين المال اللي حيهد الحيل ويضيع العيال.

ويقفـــان في عـــودهما مـــع أولادهم على الرصيف ينتظرون قطار

الـــركاب الـــذي يتحرك من محطة بورسعيد الثامنة مساءاً..يركبونه ويظـــل يتبختـــر علـــى أرصفته الحديدية..ويصل إلى محطة الرسوة فـــيترلون..ويجـــري الأولاد ناحية بيت جدهم وجدهم فرحين بحياة تضحك لهم..لا عليهم.

"عواطـــف"..تـــركب ســـيارة أجرة مع زوجها "رضوان" من حي الـــزهور..وتـــتوقف بهم السيارة على أول شارع التجاري..يغدون ويـــروحون في الشـــارع طوله وعرضه..حتى يختار أولادهما ملابس العيد..وما أن ينتهوا من شرائها..ويعودون بسيارة أخرى حتى عزبة أبـــو عوف..يقابلهم الأب والأم بترحاب بالغ..ويقبلون الأولاد في حـــب وحنان..ثم ينطلق الأولاد في الأرض المتسعة أمام بيت جدهم وجدهم..ويظل "رضوان" ينظر إلى "عواطف" وعينيه تقولان:

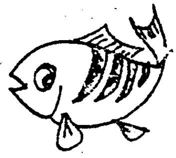
- صبرت ونلت..حورية من الجنة..متحنية بالحنة..جمعنا مكان غـــربتنا..وبـــلاد الله واســـعة..تســـاع القلـــوب الخضرا..الطاهرة..وايدينا عرقانة بشقانا..ورب العرش نجانا من طمع النفوس ولما الحبيبة تخش القلب وتغوص..وما تلاقي غيرها متربعة جواه.

تنظر إليه بعينيها التي تشع حباً ودفئاً:

- جمعتنا ارض غريبة عن بلدك وبلدي..لا بيدك ولا بيدي..وحاول الزمان يفرقنا..وقلوب بتحب جمعتنا على ارض بلدي..ولسه لما باشوفك قلبي بيدق..أقوله عندك حق..حياتي دايبة في حياتك.

****

قطع "خالد" تلك الرحلة طوال عشرة اشهر..اقترب فيها من نفوس بشرية تعيش على أمل الاستمرارية في دنيا الله..كان يتمنى أن يحلق بخياله إلى جميع أطراف المدينة "أم خلف..بحر البقر..الكاب..رأس العش..المناصرة..الديبة..الجرابعة"ولكن الأمل يحدوه أن يزورها بخياله ويطرق أبواب سكانها ليعرف ما يدور برؤوسهم تجاه مدينتهم الجميلة..التي يقولون دائماً "إحنا من بورسعيد..من دينها..لما نتغرب نحب بسرعة نقرب والشوق والحنين في عينينا وسابقانا لهناك ايدينا ورجلينا".



تمت بحمد الله

٢٠٠٥/١١/٢٨



* عادل عبد المجيد القنديل.
* مواليد ١٩٤٩/٧/٢ الزقازيق.
* لواء شرطة سابق.
* حاصل على ليسانس الحقوق وليسانس الآداب لغات شرقية
* مؤلف بالإذاعة والتليفزيون و عضو اتحاد الكتاب.
* صدر له مجموعات قصصية:-

وابور أبو النور-قلعة صقر-جدي وجدتي-حياتنا-جلابية راشد-نقطة الصمت مأمورية زفاف عفاف-قيد الحضر ضد عفريت-مفاهيم محتاجة تفهيم ٢،١ على رصيف سيس-نور الدين والكلب عنتر.

* روايات:-

سجين زفتى-الولد رومانسي-عطر العرافة-البوابة-زهرة الفصول-أرنب سرق عمري-سقطة في زمن السيد ياغمور-جعفري وبديع العنتري أبناء العم وسام ١،٢،٣ - الكشف-كمساري قطاع خاص-الحبل والقارب١-م.صاوي الراوي١٩٩٥-أطراف مدينة

* قيد النشر:-

أبناء العم وسام ٤-أوراق نادرة-الحبل والقارب٢-صمام حربي-أحوال العباد في زمن العناد-حورية البحيرة

عنوان الكاتب
بورسعيد ، مساكن ٦أكتوبر ،عمارة ٨٠ شقة ١٥ ت/٢٢١١٩٤

رقم الإيداع:- ٢٠٠٦/٤٨٠٠



قلوب مُسنة

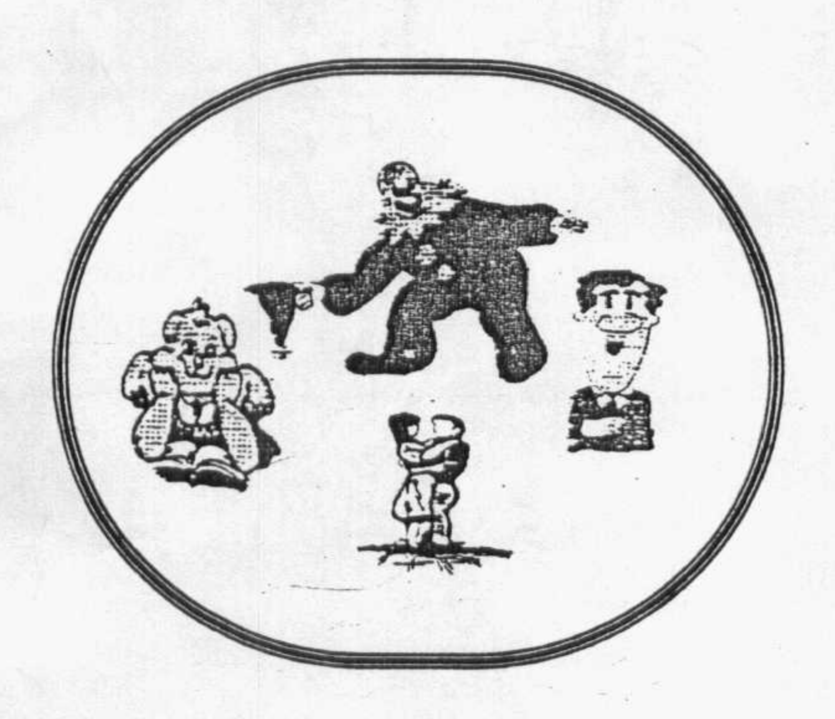
"حطمها الحب"

رواية

عادل القنصل


فراشة البراري
رواية
عادل القنصل
إلى اللقاء في العمل القادم بإذن الله.

أحوال العباد فى زمن العناد



الجزء الأول

حكايات على شاكلة المقامات

عادل القنصل